بلاد الروم
قبل الفتح الاسلامي وفي ايامه
ـ ٢ ـ

اللواء الركن محمود شيت خطاب
(عضو المجمع)

١ ـ القوات البرية :

أولا التنظيم :

تطور جيش الروم بالتدريج أسوة بالجيوش العالمية الاخرى ، فقد كان الناس في أوائل أدوار تمدنهم قبائل يدافع عنها القادرون على حمل السلاح من رجالها ، فاذا هدد القبيلة خطر عسكري ، اجتمع رجالها بلا ترتيب ولا نظام، وبعد المعركة ينال كل فرد من أفراد القبيلة من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة شكيمته ونفاذ شخصيته . ولما تحضر الناس وتقاسموا الأعمال ونشأت الدول ، كان من أقدم المهن عندهم الكهانة والجندية .

وأول دولة نظمت الجند على أسس تنظيمية ثابتة هي الدولة الفرعونية في مصر ، فقد جندت جنداً من الزنوج والأحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، أخضعت بهم سكان سواحل البحر الأحمر ، ثم انتشر أمر التجنيد في الدول القديمة : الآشورية ، والبابلية والفينيقية واليونانية والرومانية والفارسية ... الخ ...

وكان نظام جيش الفراعنة هو نظام الصفوف المتعاقبة المتراصة ، والمشهور

أن رمسيس الثاني هو منظم الجيش المصري على هذا النظام المعروف •

واقتبس اليونان نظام الجند المصري ونوّعوه ، فأنشأوا نظام الفرق ، حيث تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة ، وكانت الفرقة مؤلفة من أربعة آلاف رجل ، يصطف رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة أقدام في صفوف متعاقبة الواحد وراء الآخر ، فجعلها فيليب المقدوني ضعفي ذلك ، ثم جعلها ابنه الاسكندر أربعة أضعاف ، وقارب مابين الرجال حتى كادت تتماس أكتافهم وتترابط تروسهم ، ثم اصطنع لهم رماحاً طول بعضها أربعة وعشرون قدماً • وفي هذا النظام تكون رماح الصف الأمامي قصيرة ، ورماح الصف الذي وراء الصف الأول أطول فأطول ، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة أقدام نحو الأمام • وكان فيليب قد نظم فرقةً من الفرسان ، فأضاف اليها ابنه الاسكندر آلات الحرب ومن جملتها المنجنيق ، وبهذا التنظيم تغلب الاسكندر على كثير من الجيوش في كثير من المعارك قبل الميلاد بأربعة قرون •

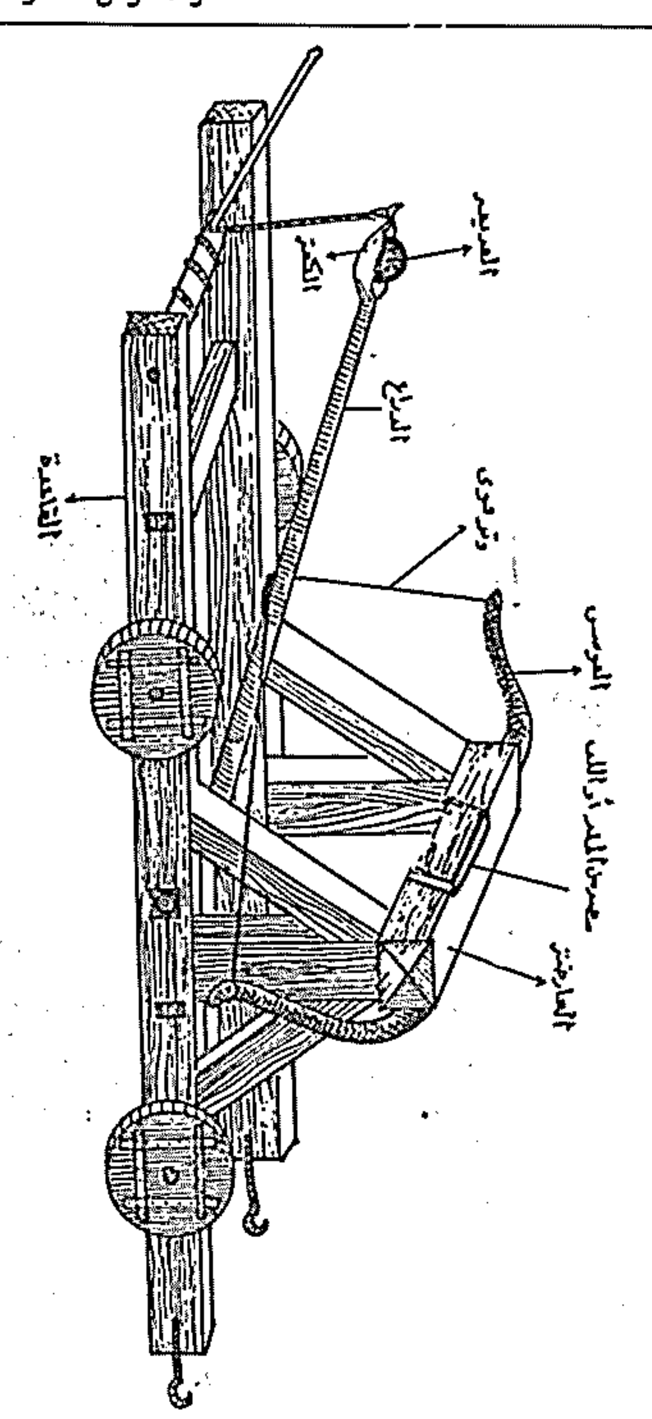
فلما نشأت دولة الروم ، اقتبست نظام الفرق من اليونان ، وأدخلته في تنظيم جيشها البري •

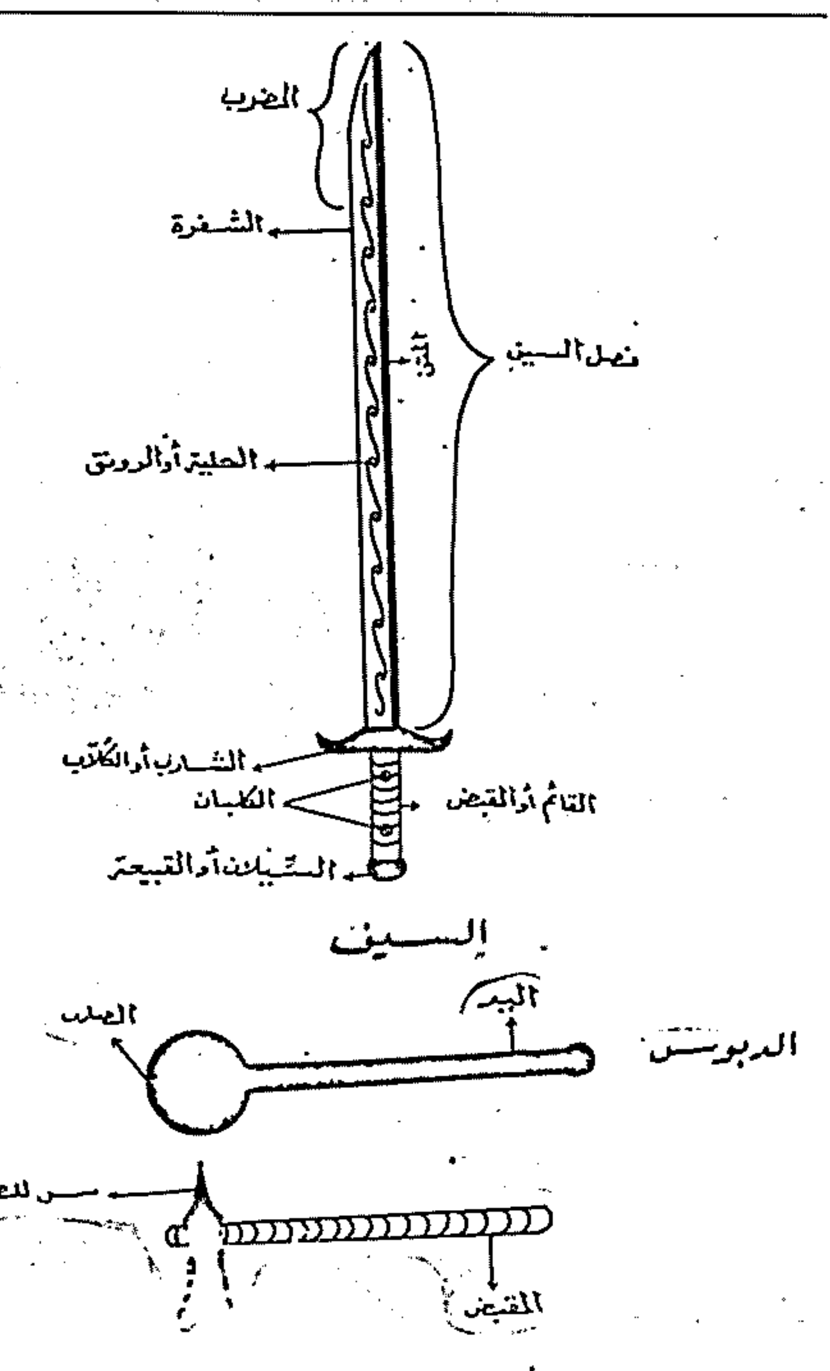
كان الجيش البيزنطي منظماً في فرق ، تعداد كل فرقة عشرة آلاف جندي[1] ، تتألف الفرقة من ثلاث طبقات من المقاتلين : الشباب ومنهم يتألف الصف الأول في الحرب ، والكهول في الصف الثاني ، وأهل الدربة والحنكة في الصف الثالث والصفوف المتعاقبة الأخرى ، وكان يلحق بكل فرقة من المشاة كتيبة من الفرسان تتسلح بالسهام والمقاليع والمزاريق [2] لمشاغلة الأعداء في

(١) في رواية ، ان تعداد الفرقة ستة آلاف جندي ، ويبدو ان التنظيم مرن ، فهو بين العشرة آلاف والستة آلاف .

(٢) المزاريق : جمع مزراق . والمزراق : الرمح القصير .

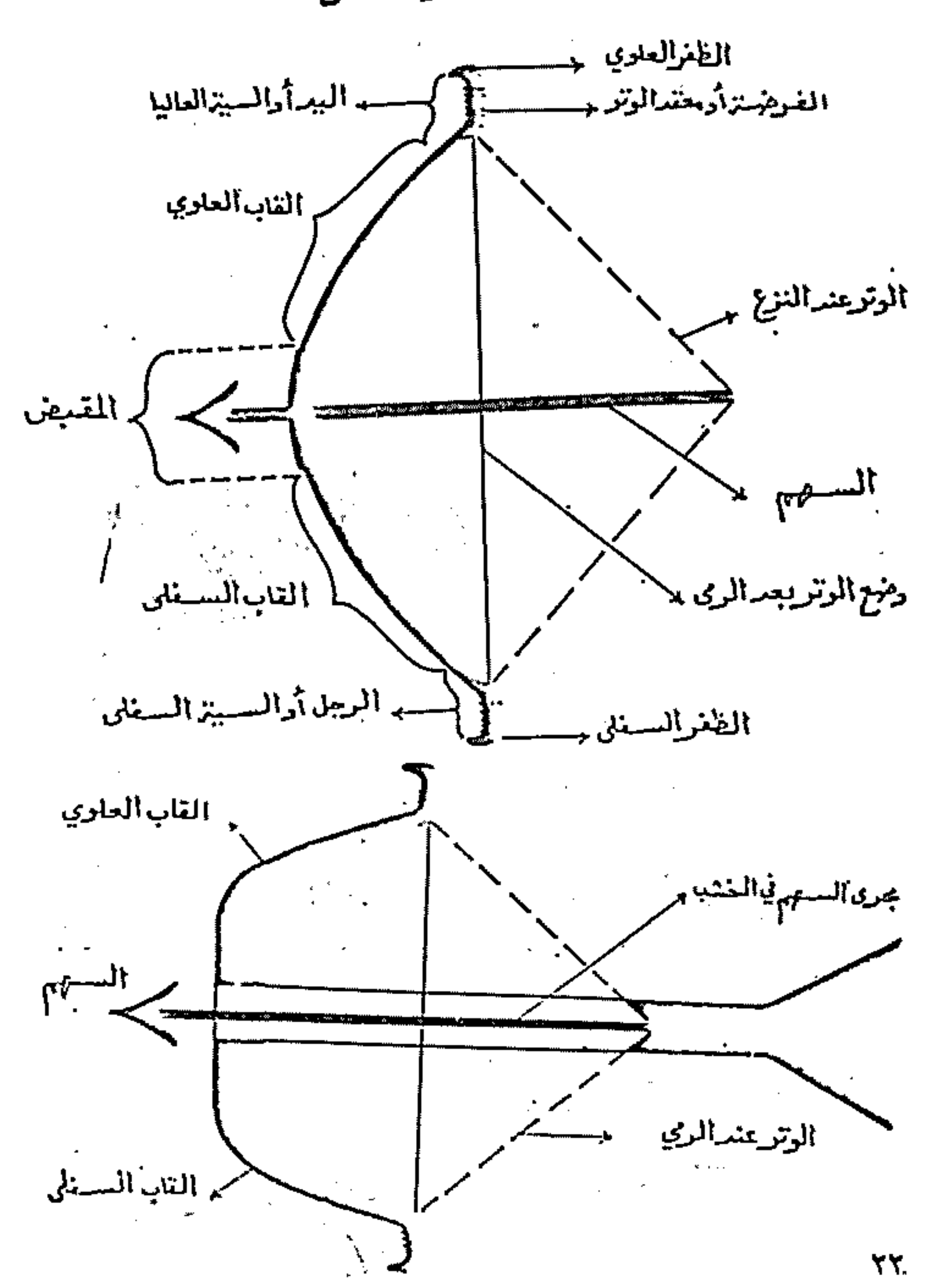
السّهم والرُّمح


القوس
العارضة
الذراع
الكفة
القاعدة


المضرب
الشفرة
نصل السيف
الحلية أو الرونق
الشارب أو الكُلاّب
الكلبان
القائم أو القبض
السيلان أو القبيعة
اليد
الدبوس
سن للطعن
المقبض

السيف

القوس



الظفر العلوي
الفرضة أو معقد الوتر
اليد أو السية العليا
القاب العلوي
الوتر عند النزع
المقبض
السهم
القاب السفلى
وضع الوتر بعد الرمى
الرجل أو السية السفلى
الظفر السفلى
القاب العلوي
مجرى السهم في الخشب
السهم
الوتر عند الرمي
القاب السفلى

حرب المشاة ، ولاجراء الاستطلاع قبل الاصطدام بالقوات المعادية ، ولحماية المشاة قبل الاصطدام بالعدو وأثناءه ، وللقيام بالمطاردة السريعة بعد هزيمة الأعداء .

وكانت كل فرقة من فرق المشاة تضم عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق[٣]، وقد قسم الروم الفرقة الى قسمين : كل قسم مؤلف من خمسة آلاف رجل بقيادة (طومرخان [٤] Turmarch) ، وهو ما يشابه تنظيم اللواء في العصر الحديث ، أي أن كل فرقة بيزنطية مؤلفة من لواءين ، تعداد كل لواء خمسة آلاف مقاتل .

وقسموا كل لواء الى خمسة كراديس [٥] ، تعداد كل كردوس ألف رجل، بقيادة قائد اللواء (طرنجارية [٦] Drungairs)

وقسموا كل كردوس الى خمس سرايا ، كل سرية مؤلفة من مائتى رجل[٧] ، بقيادة (قومس)[٨] .

وقسموا كل سرية الى خمس فصائل ، كل فصيلة مؤلفة من أربعين

(٣) البطريق : من اشراف الروم يحمل رتبة عسكرية هي رتبة قائد فرقة ، ويشابه في التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء .
(٤) طومرخان : قائد لواء يحمل رتبة عسكرية ، تشابه رتبة قائد لواء في الوقت الحاضر برتبة عميد أو عقيد .
(٥) الكراديس : جمع كردوس ، وهي كلمة يونانية معربة استعملها العرب ، ومعناها : الف جندي . والكردوس يشابه تنظيم الوحدة او الفوج في المشاة والكتيبة في الخيالة بالنسبة للتنظيم الحديث .
(٦) طرنجارية : يشابه قائد وحدة ، فوج أو كتيبة في التنظيم الحديث ، الذي يكون برتبة مقدم .
(٧) يشابه تنظيم السرية في الوقت الحاضر .
(٨) قومس : يشابه قائد سرية في الوقت الحاضر الذي يكون برتبة نقيب او رائد .

رجلا[9] بقيادة (قمرطخ)[10] .

وقسموا كل فصيلة الى أربع حضائر ، كل حضيرة مؤلفة من عشرة جنود بقيادة (الدمرداغ) وهو ضابط صف (انظر المخططات المرفقة) .

هذا هو مجمل تنظيم جيش الروم البري حين ظهر الاسلام وفي أيام الفتح الاسلامي على عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية ، لذلك قسم خالد بن الوليد رضى الله عنه جيشه الى كراديس في معركة اليرموك الحاسمة سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤م) ، وهي تعبية لم تعبئها العرب من قبل[11] ، وقسم الكردوس الى عشرة أقسام ، على كل قسم (نقيب) ، وقسم كل قسم من تلك الأقسام الى عشرة أقسام فرعية ، على كل قسم منها (عريف) .

ولو لم يطوّر المسلمون تنظيم جيشهم في معركة اليرموك ، لكان من المشكوك فيه أن ينتصروا ، لأن الروم كانوا متفوقين عليهم فواقاً ساحقا .

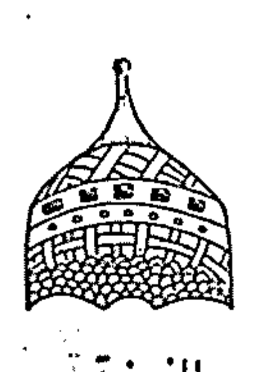
ثانيا . التسليح :

كان الفرسان والمشاة في جيش الروم، يقسمون الى فرق خفيفة السلاح، وفرق ثقيلة السلاح .

وكان الفارس ذو السلاح الثقيل يلبس الخوذة الفولاذية ودرعاًمن الزرد يكسوه من رقبته الى فخذيه وقفازاً من الحديد وأحذية من الفولاذ . وكان يحمل عباءة خفيفة يرتديها فوق سلاحه صيفاً وعباءة فضفاضة من الصوف يتدثر بها شتاء . وكان سلاحه سيفاً عريضاً وخنجراً ورمحاً وقوساً للرماية

---

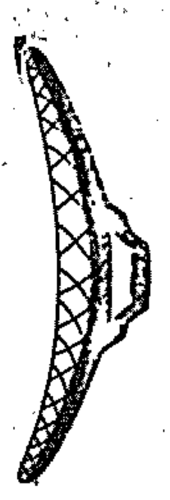
(٩) يشابه تنظيم الفصيلة في الوقت الحاضر التي تكون بقيادة ملازم .
(١٠) قمرطخ : رتبة عسكرية لقائد الفصيلة ، تشابه رتبة الملازم في الجيوش الحديثة .
(١١) الطبري (٣٩٦/٢) وابن الاثير (٤١١/٢) .



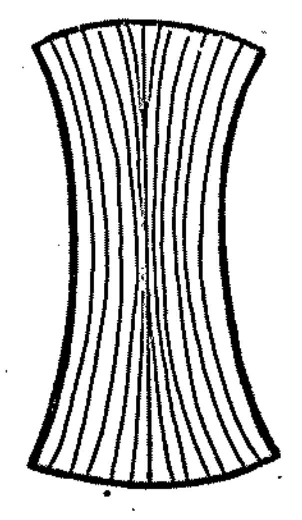
الخوذة



الدرع حلقات منسوجة ـ الدرع البتراء



الترس المقبب



الترس المستطيل

وجَعْبَة [١٢] للسّهام .

واذا كان الفارس ممن يقفون في الصفوف الأمامية ويقوم بالهجوم ، وضعت دروع فولاذية على صدر حصانه وعصابات فولاذية على جبهته .

وكان الفارس ذو الأسلحة الخفيفة عادة من الرماة ، ويرتدى سترة من الزرد .

أما الجنود المشاة المسلحون بالأسلحة الثقيلة ، فيرتدون دروعاً من الزرد تغطى انصاف أجسادهم العليا وخوذاً فولاذية . وكانت أسلحتهم السيف والرمح وفأساً لها نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من ناحية أخرى .

وكان الجنود المشاة المسلحون بالأسلحة الخفيفة ، من الرماة بالقوس ، أو من الذين يطعنون بالحراب ، ويلبسون قمصاناً طويلة من الزرد تصل الى الركب أو دروعاً خفيفة في بعض الأحيان ، ويحملون جعباً للسّهام فيها أربعون سهماً ، ويحملون فؤوساً في أحزمتهم ، وكانوا يعلقون على ظهورهم تروساً صغيرة مستديرة .

وكان للروم آلات ثقيلة كالبرج والعَرّادة [١٣] والدبابة والكبش ، تحمل بجانب متاع الجيش على الحيوانات أو العجلات .

ويغلب أن كلمة : (برج) مشتقة من اليونانية ، وقد وضعت لبرج متحرك شُيِّد من الخشب ومغطى بالجلد والحديد ، وكان يُستعمل للاقتراب من الحصون والمدن المنيعة لاقتحامها ولقذف السهام أو الاحجار أو أية مقذوفات أخرى . وفي معظم الأحيان يُجرّ البرج على العجلات الخشبية أو الحديدية

(١٢) الجعبة : وعاء السهام والنبال .
(١٣) العرادة : آلة من آلات الحرب القديمة ، وهي منجنيق صغير .

أو يدفع على اسطوانات ، ويتألف البرج من عدة أدوار فوق بعضها يوصل اليها بدرجات من الداخل ، وينتهي البرج بقنطرة خشبية يمكن القاؤها على الحصن أو السور ليرقى عليها الجنود في هجومهم على العدو •

والعرادة آلة أصغر من المنجنيق ، تلقى بها الحجارة على أبعاد كبيرة ، وقدعرفها الفرس وعرفها كثير من الأقوام الأخرى أيضاً •

والدبابة آلة من آلات الحرب ، يدخل فيها الرجال ، فيدبّون بها الأسوار ليثقبوها ، وهي برج متحرك له أحيانا أربعة أدوار : أولها من الخشب، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر • وتصعد الى طبقات الدبابة الجنود لثقب الحصون وتسلق الأسوار ، وكانت الدبابات تسبق المشاة حتى تقترب الى مسافات قصيرة من مواقع العدد أو حصونه ، وهناك تعمل عملها في قذف الحجارة أو كرات النار المشتعلة أو النبال • وكان القادة يخصصون عددا من الجنود للسير خلف الدبابة ، حتى يسوّوا طريقها ويزيلوا الموانع التي يضعها العدو في طريقها •

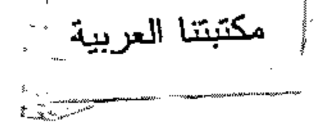
والضَّبر [١٤] ، وجمعه : ضُبور ، مثل رؤوس الاسفاط ، يتقى بها في الحرب ، وهي جلد يغشى خشبا ، يكمن تحته الرجال عند الهجوم أو الانسحاب ، ويحتمون به في تقدمهم الى الحصون لدق جدرانها أو نقبها •

والعيار [١٥] قطعة من الجلد أو القماش قوية قليلة العرض مطوية ، تمسك من طرفيها ، ويوضع الحجر أو الحصاة أو قطع الحديد أو الرصاص المصوب نحو الهدف في وسطها •

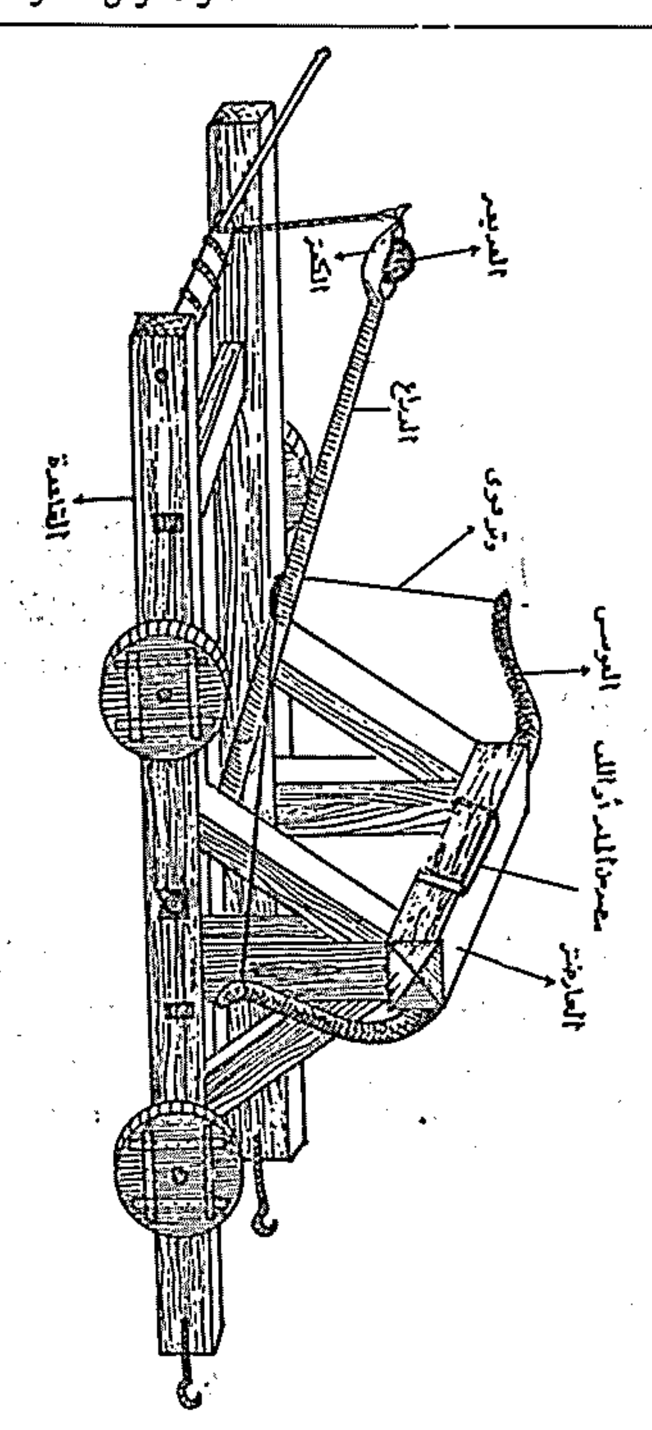
---

(١٤) الضبر : الدبابة كانت تتخذ من الخشب يغشى بالجلد ، يحتمي به الرجال ويتقدمون الى الحصون لدق جدرانها ونقبها .

(١٥) العيار : ماخوذة منها كلمة : العيار الناري ، وهي قذيفة تطلق من المسدس ونحوه .



الكبش


القوس
العارضة
الذراع
القاعدة

والمقلاع [١٦] مكون من كفة توضع فيها القذيفة مربوطة بثلاثة حبال أو سيور متينة ، تمسك من أطرافها ، وبعد تدويرها مرارا باليد يفلت طرف واحد من الحبال أو السيور المذكورة ، فيقذف ما في الكفة الى بعد شاسع بقوة واندفاع .

والكبش [١٧] آلة من خشب وحديد ، تجر بنوع من الحبال ، فتدق الحائط فينهدم . وأصل الكبش دبابة ولكن له رأس في مقدمه مثل رأس الكبش ، يتصل داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال ، تجرى على بكرة معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها . ويتعاون الجنود الذين يتحصنون داخل الكبش مع آخرين استتروا بدروعه ووقفوا خلفه ، على ضرب السور حتى يخرقوه .

والمنجنيق آلة قديمة من آلات الحصار ، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة أو حديد أو نار على الأسوار فتهدمها أو تحرقها .

ومن المجانيق أنواع لرمي السهام التي توضع في المنجنيق ، وترمى عنها بالأقواس الى مسافات بعيدة وقوة خارقة . وأخرى لرمي الحجارة حتى تهدم الحصون ، وثالثة لرمي قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النيران الاغريقية .

والنفاطة أداة يرمى بها النفط ، لاحراق ما يمكن احراقه من خيام العدو ومعسكراته وأبنيته وحصونه وملاجئه .

ثالثا . الأسلحة [١٨] :

المشاة : وهم الذين يسيرون على أقدامهم ، ويكون أكثر الجيش البري

(١٦) المقلاع : ما يرمى به الحجر .
(١٧) الكبش : آلة من آلات الحرب ، كانت تستعمل في الحصار ، لقذف الحصون .
(١٨) اسلحة الجيش : المصطلح العسكري الذي يراد به : صنوف الجيش .

مؤلفا من سلاح المشاة ، وقديما قالوا : «المشاة سيد الاسلحة» •

والفرسان أو الخيالة ، هم الذين يمتطون الخيول ويتدربون على الفروسية ، والقتال على الخيول كرا وفرا ، ويتعلمون حماية المشاة في مسير الاقتراب ، والهجوم بالخيل ، والاستطلاع قبل القتال وفي أثنائه وبعده ، وحماية المشاة في الانسحاب ، والقيام بالمطاردة • ويعتمد هذا السلاح على سرعة الحركة ، وعلى المباغتة ، وعلى التأثير المعنوي على العدو •

والمهندسون ، وهم الفنيون الذين يشرفون على آلات الحصار ، ويرافقون الجيش لتمهيد الطرق واستطلاع المعابر واقامة القناطر والجسور ، وانشاء الاستحكامات ، وتدمير حصون واستحكامات الأعداء •

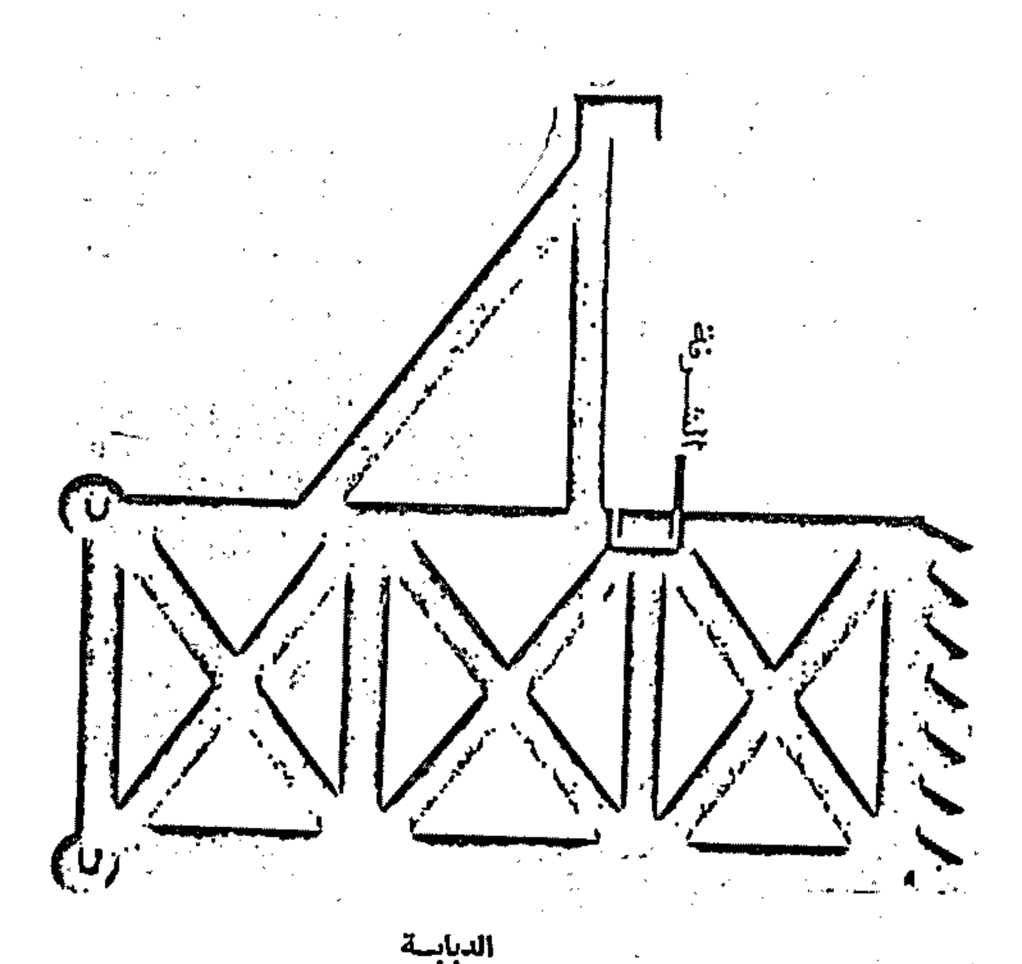
والنفّاطة ، وهم الذين يقذفون النفط على العدو ، ويعدّون وسائله للقذف ، وللنفاط ثوب خاص يرتديه كي لايصاب بأذى من النفط •

والسيّافة ، وهم المدربون على استعمال السيوف راكبا وراجلا في قتال العدو ، والماهرون منهم في استعمال السيف ، هم الذين يبادرون بالخروج الى المبارزة •

والرمّاحة ، وهم المسلحون بالرماح، الذين يتقنون استخدامها في القتال•

والنشّابة ، وهم المدربون على رمي السهام • والماهرون في اصابة أهدافهم اصابات دقيقة هم الرماة ، ويستعان بهم في الرصد وقتل قادة العدو ورجالاته ، وفي اصابة حراس الأسوار والحصون ، ولهم ميزة خاصة وحظوة دون سائر أقرانهم عند قادتهم •

والمنجنيقيون ، وهم المدربون على تشغيل المنجنيق واستخدامه ، وتشغيل أشباهه واستخدامه في ميادين القتال •



الدبابة

وسلاح الاشارة ، وهم الذين يؤمنون الاتصال بين القائد وقواته داخليا، وبين تلك القوات ومقراتها العليا خارجيا •

وسلاح النقل ، وهم الذين ينقلون السلاح والذخيرة والتموين ومواد العينة والقضايا الاخرى من قواعد الجيش الى ساحات القتال ، وينقلونها من ساحات القتال الى قواعدها ، ويخلون الخسائر من الخطوط الامامية الى المستشفيات •

والأطباء، وهم المسؤولون عن معالجةالمرضى والجرحى من أفراد الجيش، ويشرفون على اخلائهم الى الخلف •

والمر ّضون ، وهم الذين يعاونون الاطباء في حمل رسالتهم الطبية ، وينوبون عنهم في معالجة المرضى والجرحى عند غيابهم أو عدم تيسرهم •

والبياطرة ، وهم المسؤولون عن علاج الخيل والبغال وحيوانات النقل الاخرى •

ورجال الدين ، وهم المسؤولون عن غرس العقيدة وشحذها والتحريض على القتال ورفع المعنويات بين المحاربين من رجالهم •

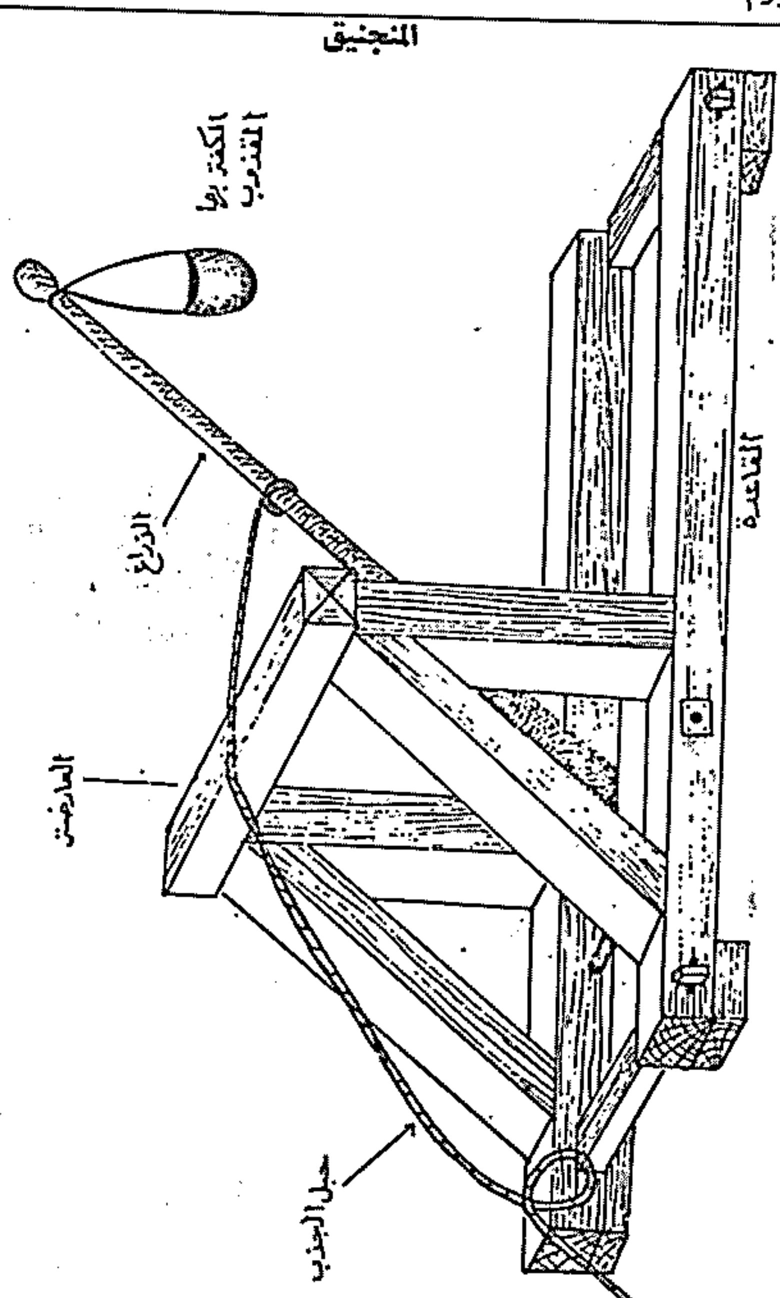
وسلاح الميرة والتموين، وهم المسؤولون عنالتموين للمقاتلين وحيوانات نقلهم ، وتزويدهم بما يطعمون ويشربون •

وسلاح العينة ، وهم المسؤولون عن السلاح والذخيرة والتجهيزات والمواد الاخرى •

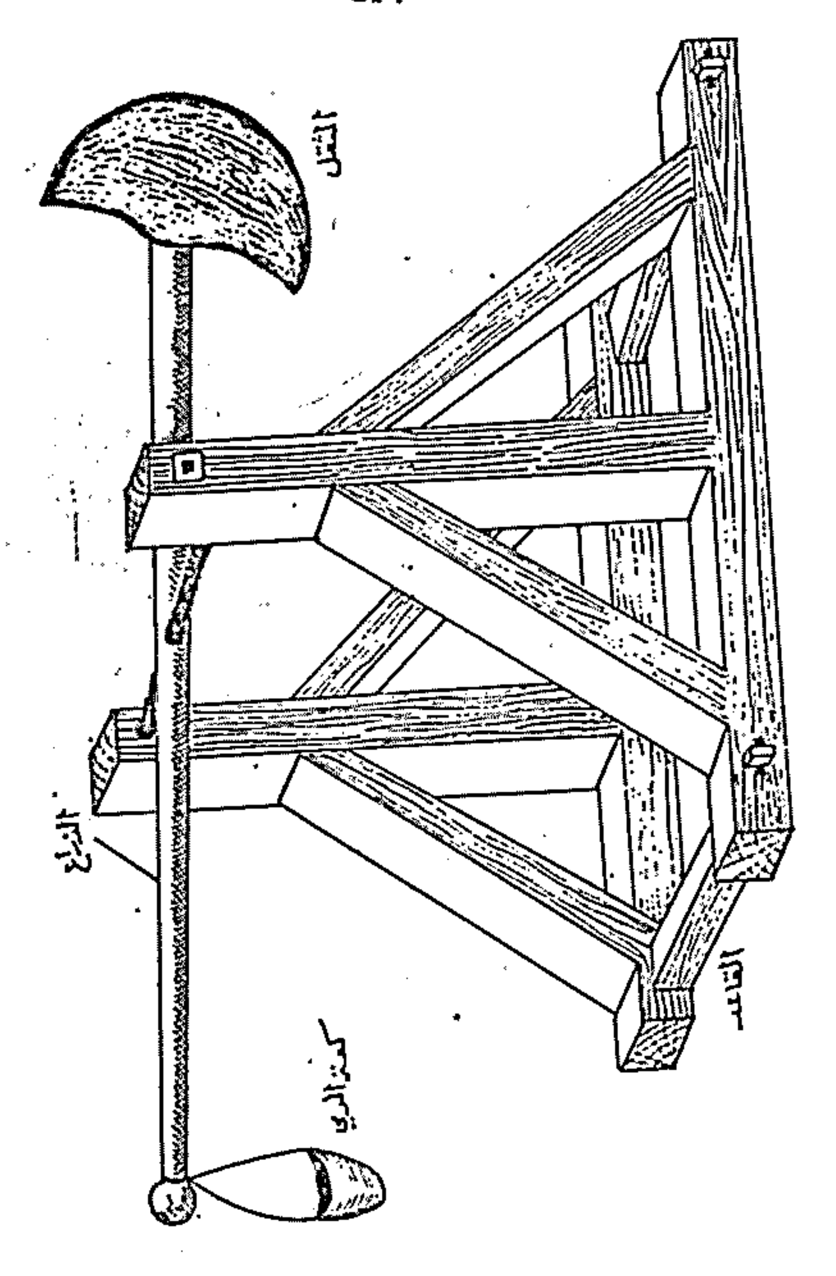
رابعا • التعبئة :

كان الروم يعتمدون الحذر والحيطة في قتالهم ، وقلما يبادرون الى

المنجنيق



المنجنيق



اتخاذ الأساليب الخطرة في الحرب وممارسة المجازفة في القتال •

وكان شعارهم الحربي : أقصى المكاسب ، بأقل الخسائر •

وكان على القائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للعمليات العسكرية قبل المشاركة في أي اشتباك حربي ، فالهرب المصطنع ، والمباغتة ، والهجوم الليلي ، والكمائن ، والتظاهر بحضور المدد الكبير ، وابراز أعداد مبالغ بها في حماية الأسوار عند محاصرة المدن والحصون ، والمفاوضات الطويلة لكسب الوقت ، كل هذه الاساليب وأشباهها وسائل مقبولة في الجيش البيزنطي ، ويجري التدريب عليها نظريا وعمليا وممارستها •

وكان الجندي الذي يعتمد على القوة حيث يغني الدهاء في كسب النصر ، يعتبر أبله وجنديا لا كفاية له ، ولا بأس بارسال خطابات مريبة لقادة العدو ، لبذر الشقاق بينهم وبين قادتهم ، كما أنه لا بأس باخبار الجند بانتصارات وهمية لرفع معنوياتهم •

وكانت قوة الروم في أجهزة مخابراتهم ، فقد جعلوا شغلهم الشاغل دراسة سبل عدوهم في الحرب ، ومواجهتها بأفضل الطرق واستحصال أدق تفاصيل المعلومات عن عدوهم •

وكان للروم مقدرة عالية في الحصار ، ولهم قواعد خاصة تختلف تبعا لنوع البرج المحاصر والبيئة المحيطة به ، وكانت هذه القواعد تطبق ، ولكنها لم تكن جامدة ، بل تتسم بالمرونة •

وكانت قوة جيش الروم في خيالته الثقيلة ، وكان نظامه العسكري محكما ، وخدماته الادارية جيدة وذات كفاية •

وكانت له فرق طبية خاصة ، وكان الفرسان التابعون للخدمات الطبية ،

يحملون الجرحى من ميدان المعركة الى أطباء الجيش في المؤخرة •

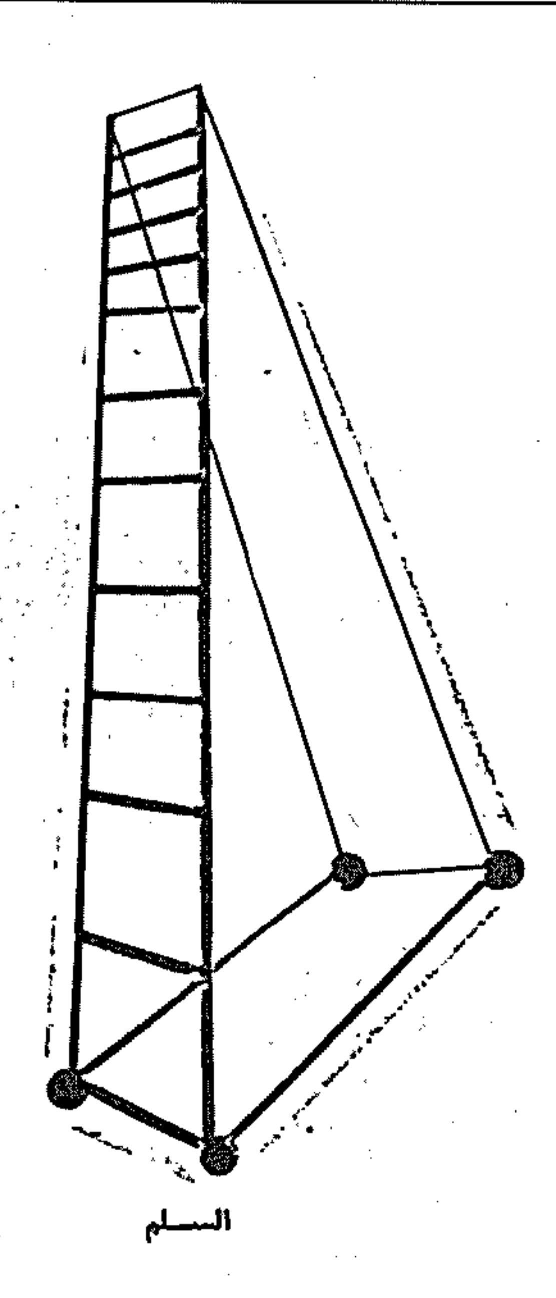
كما أن سلاح هندسة الروم متمرس على ازالة العقبات الطبيعية ، لـه خبرة جيدة بازالتها ، قادر على اقامة المعابر والقناطر والجسور ، وترميم الأسوار والحصون وادامتها اذا أصابها العطب •

وكانت له أساليب معلومة في اختيار المعسكرات وحمايتها ، وتعاليم خاصة في مسير الاقتراب وفي الدفاع والهجوم والانسحاب والمطاردة ، وفي زرع الكمائن والربايا في الحروب الجبلية •

وكان يهتم كثيرا بتطبيق مبدأ : (الأمن) لقواتـه المحاربة ، كما يهتم بمبدأ : (حشد القوى) و (رفع المعنويات) و (تأمين القضايا الادارية) •

وكان للروم مؤلفات فنية عسكرية ، يتعلمون ماجاء فيها ، ويتدربون تدريبا عسكريا على العمل بموجب مبادئها وتفاصيلها ، ويطبقون محتوياتها بحرص وكفاية •

لقد كانت للروم فنون تعبوية معروفة من الناحيتين النظرية والعملية ، وكان مجموع الجيوش البرية النظامية في القرن التاسع الميلادي مائة وعشرين ألفا ، ويقدر في زمن جستنيان بمائة وخمسين ألفا • وكان سكان الولايات الثغرية المختلفة يتحملون نفقات الجيوش العاملة فيها ، ومعلوماتنا عن الجيوش المحلية في الولايات قليلة لاتكفي لاعطاء صورة وافية عن تعدادها وتنظيمها ، ولكن الجيوش المحلية كانت أقل تدريبا وكفاية من الجيوش النظامية ، وكان نظام منح الارض نظير الخدمة العسكرية الذي طبق في القرن الميلادي على حرس الحدود ، قد ظهر ثانية واتسع نطاقه في الولايات الثغرية ، وكان لايجوز انتقال هذه المنح ، لان منحها كان يتضمن الزاما بالخدمة في الجيش يرثه الابن عن أبيه ، فكانت الجندية من المهد الى اللحد ، يرثها الخلف عن السلف • لقد كانت القوى العسكرية مصدر قوة الدولة الحقيقية دون منازع •



السـلم

تنظيم قوات الروم البرية

الفرقــة

(١٠٠٠٠) مقاتل

- لواء (٥٠٠٠) مقاتل
- لواء (٥٠٠٠) مقاتل

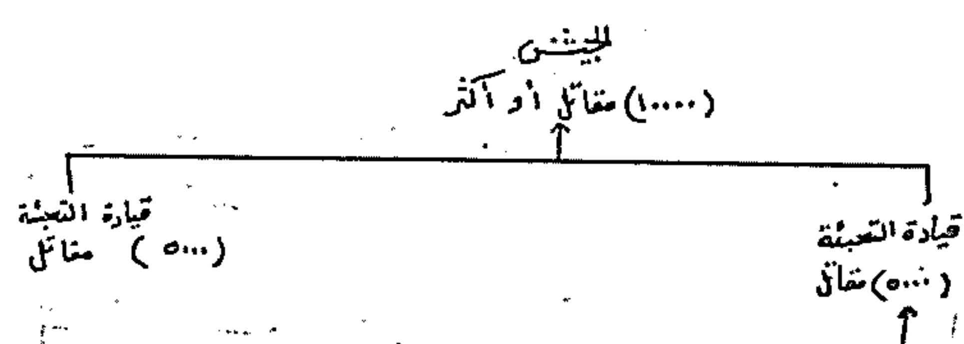
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل
- كردوس (١٠٠٠) مقاتل

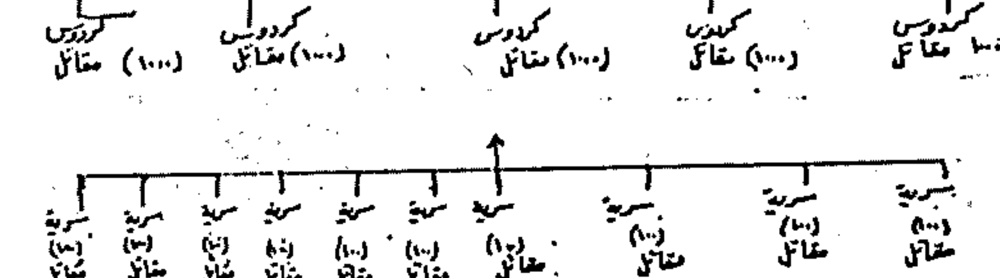
- سرية (٢٠٠) مقاتل
- سرية (٢٠٠) مقاتل
- سرية (٢٠٠) مقاتل
- سرية (٢٠٠) مقاتل
- سرية (٢٠٠) مقاتل

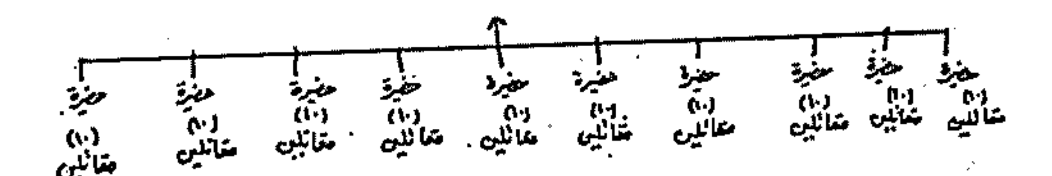
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً
- فصيلة (٤٠) مقاتلاً

- حظيرة (١٠) مقاتلين
- حظيرة (١٠) مقاتلين
- حظيرة (١٠) مقاتلين
- حظيرة (١٠) مقاتلين
- حظيرة (١٠) مقاتلين

تنظيم قوات المسلمين البرية







ملاحظة

لم يكن اسم الحضيرة يطلق على الوحدة التعبوية الصغيرة المؤلفة من عشرة مقاتلين في العصر الإسلامي الأول، ولقد وضعناها للإيضاح فقط، لهذا اقتضى التنويه.

قيادات قوات الروم البرية ومقارنتها
بقيادات قوات المسلمين البرية على عهد الخلفاء الراشدين
وعهد الدولة الأموية ، وقيادات قوات الجيوش البرية الحديثة

التسلسل	عدد المقاتلين	قيادة الروم	قيادة المسلمين	الرتب العربية حالياً
١	١٠٠٠٠	بطريق	أمير الجيش	لواء
٢	٥٠٠٠	طومرخان	أمير التعبئة	عميد أو عقيد
٣	١٠٠٠	طرنجارية	أمير الكردوس	مقدم
٤	٥٠٠	القومس	قائد السرية	رائد أو نقيب
٥	١٠٠	ـــ	نقيب	ـــ
٦	٤٠	القرطخ	ـــ	ملازم
٧	١٠	الدمرداخ	عريف	رقيب

ب ـ القوة البحريـة :

اعتبر الروم القوة البحرية أقل أهمية من الجيوش البرية ، وقد اتجهت رومة الجمهورية الى البحر مكرهة ، ويصدق الحكم نفسه على الامبراطورية البيزنطية ، فقد بنى الأسطول الروماني تحت ضغط الحروب البونية ، وأبقي عليه ليقوم بمراقبة البحار ، ولقهر القراصنة ، وحماية واردات الحبوب المنقولة لرومة والقسطنطينية .

وقد اعتمد حكام القسطنطينية خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين في الدفاع البري عن ممتلكاتهم على التحصينات الضخمة والمراكز القوية التي أقاموها على حدودهم وفي داخل أراضيهم جريا على سياسة الروم التقليدية ، ولكن البيزنطيين وسعوا مجال التحصينات وزودوهـا بحاميات نظامية ، مع الاستعانة بقوات من الجنود المحليين أو المعاهدين من مستوطني الريف المجاور .

وهكذا كانت المنظومة الدفاعية في مناطق البحر الأبيض المتوسط حتى فتوح المسلمين تقتصر على الاكتفاء بقوات صغيرة من الجنود المحترفين ، تشد أزر قوات الدفاع المحلية في مناطق الخطر .

ولكنه كان للروم في القرن السابع الميلادي قواعد بحرية ودور للصناعة في قرطاجنة وعكا والاسكندرية والقسطنطينية ، حيث تم بناء كثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة بجانب قواعد أخرى في سرقوسة بصقلية وفي سبتة وجزر البليار . اذ بدأت الدولة ببناء أسطولها حين ظهرت على المسرح قـوة العرب البحرية ، واضطرت بسبب نشاط معاوية بن أبي سفيان البحري الى الشروع في بناء أسطول بكل ما لديها من جد وعزيمة ، فظهرت خلال القرن السابع الميلادي قيادة بحرية واحدة عليا ، وهي قيادة أميرال (أمير البحر) ، وتخضع لقيادته منطقتان لكل منهما أسطول يقوده نائب أميرال (نائب أميرال

(نائب أمير البحر) ، كما كانت ولايات أخرى تجهز القوى العسكرية اللازمة للأسطول ، ولكن ليو الثالث بعد حصار المسلمين للقسطنطينية ، اعتمد في قوته على جيش آسيا الصغرى البري ، وكذلك فعل خلفه قسطنطين الخامس •

وكان سبب الغاء القيادة العليا الموحدة للأسطول ، هو أن الاسطول نادى بنائب الأميرال امبراطوراً سنة (٦٩٧م) وأسقط الأمبراطور سنة (٧١٣م) وسنة (٧١٦م) ، مما أدى الى اضعاف الأسطول البيزنطي خوفاً على العرش من قادة الأسطول •

والراجح أنه كان للدولة أساطيل اقليمية تشبه أساطيل الامبراطورية • وفي الحرب كانت الدولة تعزّز أسطولها بعدد من السفن التجارية ، لنقل الجنود والامدادات والأسلحة والذخيرة والمواد •

ولم تواجه البحرية البيزنطية عدواً خطراً حتى ظهور الأسطول الاسلامي، فتغيرت تنظيمات البحرية البيزنطية على أثر ضغط الهجمات الاسلامية في القرنين السابع والثامن ، فوضع على رأس كل اقليم قائد حربي لـه السلطة الحربية والمدنية معاً ، فأتاح ذلك وسائل فعالة للدفاع ، وقد طبق هذا التنظيم في البحرية والجيش البري معاً •

كان تنظيم القوة البحرية البيزنطية في صورته الأخيرة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين عبارة عن أسطول حربي ، قوامه أسطول مركزي امبراطوري في القسطنطينية بقيادة القائد الأعلى للبحرية مباشرة أو عن طريق نائب للقائد الأعلى • وهناك أسطولان اقليميان في الشرق هما أسطول بحر ايجة وأسطول جنوب آسيا الصغرى ، ويخضع كل منهما لقيادة نائب أمير البحر (عميد بحري) ، والى جانبهما قطع بحرية صغيرة في بلاد الشرق • وفي الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، رابط الأسطولان

الاقليان الرئيسان في صقيلة وفي رافنا ، ويحتمل وجود أسطول اقليمي ثالث في افريقية حتى الفتح الاسلامي لهذه البلاد . وقد احتفظ الأسطول البحري الامبراطوري وكل أسطول اقليمي بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والتجارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى على نفقة الأقاليم التي تقيم فيها الأساطيل (١٩) .

مما تقدم ، يظهر أن بحرية الروم كانت تتألف من بحرية تابعة للامبراطورية ، وهي جاهزة لدعم البحرية الاقليمية ، تتحرك لنجدتها عند الحاجة ، وهي بسيطرة مركزية بقيادة قائد أعلى بحري ، يتسلم أوامره من الامبراطورية مباشرة . لذلك فان هذه البحرية تكون بحرية سوقية ، وتكون احتياطاً عاماً للبحرية الاقليمية ، تتدخل في الحروب التي لا تستطيع البحرية الاقليمية معالجتها كما ينبغي .

أما الخط الأول من البحرية البيزنطية ، فهي البحرية الاقليمية التي تكون مسؤولة عن المناطق النائية عن العاصمة القسطنطينية ، وهذه البحرية مسؤولة عن احباط الاعتداءات الخارجية باتخاذ الاجراءات الفورية لدرئها ، فاذا استطاعت التغلب عليها فانها لا تطلب سند بحرية الامبراطورية ، والا فانها تستمد عونها وتطالب بسندها .

وهذه البحريةالاقليمية، تتبع الحكام المحليين من الناحية العملية ، ولكنها مسؤولة أمام مرجعها الأعلى في القيادة العليا للبحرية التي مقرها القسطنطينية من الناحية الفنية . لذلك كانت هذه البحرية ــ بسيطرة غير مركزية ــ تتلقى أوامرها من الحكام المحليين ، لمعالجة الحروب المحلية ، وقد تتجه من منطقتها لنجدة المناطق المهددة الأخرى بأوامر من القيادة العليا للبحرية البيزنطية . لذلك

(١٩) الحدود الاسلامية البيزنطية ــ فتحي عثمان (٢٢٧/١ ــ ٢٢٠) .

كانت البحرية الاقليمية بحرية تعبوية ، أو هي الخط الأول الأمامي للبحرية البيزنطية الامبراطورية •

وحين كانت البحرية البيزنطية أقوى من بحرية الأمم الأخرى في حوض البحر الابيض المتوسط ، جعلت من هذا البحر بحيرة بيزنطية وسيطرت تلك البحرية على الشرق الأوسط •

وحين أصبحت بحرية المسلمين أقوى من بحرية البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط خسر الروم أرض الشام ومصر وشمال افريقية وخسروا الجزيرة وأصبحوا مهددين بعقر دارهم من الفاتحين المسلمين •

ان السيطرة بالبحرية على البحر الابيض المتوسط ، تؤدي الى احراز النصر والسيطرة على منطقة هذا البحر ، كما حدث للفينيقين واليونان والرومان والروم والعرب في الأزمنة الغابرة وكما هو مسجل في صفحات التاريخ ، وكما حدث في العصور المتأخرة بالنسبة للبرتغال والاسبان وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية •

لا عجب اذاً ، من تنافس الدول الكبرى في العصور المتعاقبة القديمة والوسطى والحديثة على السيطرة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، لأن ذلك يؤدي الى السيطرة العالمية •

وليس في مقدورنا أن نقدر بالتأكيد القوة التي كان عليها أسطول بيزنطة عادة ، وتدل التفاصيل التي بين أيدينا عن الحملة البحرية البيزنطية الوحيدة ــ التي نملك عنها تفاصيل ــ على أن عدد السفن كان مائة سفينة من الأسطول الامبراطوري ، وسبعاً وسبعين من أسطول الولايات ، بينما كان عدد التجارة (٢٣٠٠٠ ــ ٢٤٠٠٠) من تجارة الامبراطورية و (١٧٥٠٠) من تجارة الولايات •

ويظهر أن عدد سفن الأسطول التي أمكن جمعهـا لحملةٍ بحرية أيـام ميخائيل الثالث (٨٥٨م ــ ٨٥٩م) بلغ عددها ثلاثمائة مركب • وكان رجال الشغن يتكونون من رعايا الامبراطورية ومن المتبربرين المستقرين في أرض الدولة مثل : (المارادئيين Mardates)[٢٠] ومن المرتزقة الأجانب مثل الروس الذين استخدموا أول مرة في الأسطول ، كما يظهر ، زمن الاسـرة المقدونية • ويبدو من كتاب : (Tactica) أي الفنون الحربية الذي كتبه ليو السادس ، أن رجال الأسطول كانوا بحارة وجنودا • ولكننا نلحظ في حملة سنة (٩٠٢م) أن جنود الأسطول كانوا شيئاً آخر غـير المجدفين ، وكانت السـفن المسماة (درمونـد Dromonds) وهي السفن الكبيرة في العصور الوسطى ، واللفظ مشتق من الكلمة اليونانية : (dromos)أي السـفينة ، كانت هذه السفن تبنى في الغالب بصفين من المجاديف [٢١] ، وتحمل فوق المائة رجل في الغالب وفيها سبعون من جنود البحر ، والباقون من المجدفين والملاحين •

وبجانب ذلك ، كان هناك سفن ذات طراز مختلف ، منها ما هـو أكثر سـرعة يسمى : (Pamphylus, Pamphylis) ، وهي ذات صفين من المجاديف ، ومن هذا النوع كانت سفينة القيادة التي تحمل العلم ، وهذا النوع من السفن يستعمل في القتال والمطاردة •

---

(٢٠) الماردائيون : هم جماعة جبلية كانت تسكن نواحي لبنان من قديم الزمان، وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم في الدفاع عن حدودها الشرقيـة . فلما فتح المسلمون بلاد الشام تراجعوا الى آسيا الصغرى ، وهناك اقاموا يحاربون في صفوف الدولة البيزنطية ، وظلوا يسببون لخلفاء المسلمـين متاعب جمة . وظل الامر على ذلك حتى عقد عبدالملـك بن مروان مـع الامبراطور جستنيان الثاني صلحا اشترط فيه أن تنقل الدولة البيزنطية جماعات الماردائيين الى ولايات الدولة الداخلية ، فانقطع بذلك شرهم عن المسلمين . انظر : Vasiliev : op. cit. 1, p. 185,

(٢١) الامبراطورية البيزنطية (١٩٣ ــ ١٩٤) .

وكانت هناك سفن بصف واحد من المجاديف : (Galleys) تستخدم للاستطلاع ونقل الرسائل ، كما كان الأسطول الامبراطوري والأسطول الاقليمي أو المحلي يستعين بالسفن التجارية عند الحاجة •

وتوضع في مقدمة السفن آلات" تقذف النيران الاغريقية المخيفة ، وكان التجارة يجهزون بقنابل يدوية تحتوي على نفس المادة القاتلة التي كانت تنفجر بقوة ، على الرغم من أنها كانت لا تأتي بالنتائج التدميرية المرجوة ، ولكنها على كل حال تؤثر في المعنويات تأثيراً عظيما ، أو ترسل تلك النيران بأوعية خلال الهواء بالمنجنيقات ، وربما استخدمت قذائف في دفع مواد سريعة الالتهاب خلال أنابيب باتجاه أهداف بعيدة • وقد حفظ تركيب النار الاغريقية سراً مصوناً ، وكانت لها مخازن ومستودعات في المدن البحرية الكبرى •

وتتسم سياسة الروم البحرية في القتال ، بنفس الحذر الذي كانت تتسم به خططهم العسكرية التعبوية منها والسوقية ، فقد كان أمير البحر في الدولة الشرقية لا يحارب الا اذا كانت جميع الظروف مواتية له ، أو اذا رأى أنه لابد من الحرب لحماية احدى مقاطعات الروم • غير أنه لا سبيل الى الشك في أن الملاحين لا يعتمد عليهم في الغالب ، وكان أهم ما يشغل بال أمير البحر هو أن يدبر أمره في حالة ما اذا هدده الجنود بالانقضاض من حوله (٢٢) •

وليس بين أيدينا سوى القليل من الكتابات عن الفن البحري عند الروم،

(٢٢) الامبراطورية البيزنطية (١٦٤) ، لان جنود السفن يتكونون من رعايا الامبراطورية ومن الفرنج والروم والافريقيين ومن المرتزقة الاجانب مثل الروس ، والروم الشرقيون وحدهم كانوا من الذين يعتمد على اخلاصهم وولائهم ، لالتزامهم بالدفاع عن وطنهم وممتلكاتهم ، أما غيرهم فلا التزام يشدهم الى الحرب غير الارتزاق ، وهذا يتبخر عند الخطر .

ولكن ما وصل الينا يدل على توجيههم نفس العناية الدقيقة التي كانوا يوجهونها الى علوم العمليات البرية في الجيوش البرية البيزنطية ، الى مبادىء الحرب البحرية وفنون القتال البحري • فقد درس أمراء البحر البيزنطيون الأوصاف الطبيعية للسواحل والبحار والجزر ، وخصائص الرياح بأنواعها والمد والجزر، وأتقنوا فن الخطط والعملياتالبحرية ، وجهوا الى فنونالاستطلاع والحصول على المعلومات من مصادرها بشتى الوسائل والاتصالات والاشارات اهتماماً يعادل اهتمام المحاربين في البر • وعلى الرغم من تعدد فترات النشاط البحري، فقد ظل الأسطول مجالا للخدمة العسكرية أقل امتيازاً من غيره ، فكان الجندي البري يتقدم البحار دائماً ، ولم تكن رومة الجديدة في هذه الناحية بالذات كما رأينا ، الا محافظة على تقاليد العاصمة الغربية القديمة •

وكان رجال البحر ــ كما هو الحال في رجال البر ، يتكونون من أسلحة مختلفة : رماة ، ومنجنيقيون ، ونفاطة ، ومهندسون ، وأطباء ، وممرضون ، وأرباب حرف ، واداريون لتصليح السفن وادامتها ، ومجدفون مدربون على الجدف المتواصل الطويل ، الذين مارسوا واجباتهم ، ولهم قابلية على الاستمرار في عملهم مدة طويلة دون كلل أو ملل •

ولكن الأسطول البيزنطي أخذ يتداعى خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ودليل ذلك أن السلاجقة وصلوا الى ساحل آسيا الصغرى الغربي خلال العقد السابع من هذا القرن ، وشاعت الفوضى في الولايات التي كان يجمع منها أكبر جانب من القوى البحرية البيزنطية ، لأنه ثبت للحكومة المركزية أن القيادة البحرية العليا كانت دافعاً قوياً لمن يحملها ويحوزها على التفكير في اغتصاب السلطان ، ومن المرجح أن هذا العامل كان له أثر كبير في الهبوط بالقوة البحرية •

ولو قدر للقسطنطينية أن يكون لها أسطول قادر ، لتوجهت الحملة الصليبية الى مصر لا الى القسطنطينية ، وبالرغم من أنه توفر للامبراطورية حينما انتعشت بعد ذلك ، في ظل باليولوجس (١٢٥٨م ــ ١٢٨٢ م) ، اسطول نشيط على صغره ، الا أن الأيام العظيمة ذهبت مع أمس الدابر الى غير رجعة [٢٣] .

٦ ــ الفكر البيزنطي :

أ ــ التعليم :

ربما كان الرهبان والقسس البسطاء ، يرون في المعارف القديمة شراكاً من شراك الشيطان ، ولكن أبدى أباطرة متلاحقون رغبة في رعاية الجامعات وترقيتها ، وفي زيادة عدد المدرسين ، وفي انشاء المكتبات ، وجمع مخطوطات الآداب القديمة .

وفي القرن الرابع الميلادي ، كان يتدرج الشاب من الطبقة العليا في مراحل التعليم ، فيبدأ الصبي يتعلم القراءة والكتابة في الخامسة أو السادسة من عمره . وفي العاشرة أو الثانية عشرة كان ينصرف الى دراسة النحو ، ولا يقتصر النحو على تعريف الاسماء والافعال وقواعد تركيب الجمل ، بل كان يضم الى جانب ذلك دراسة الآداب القديمة . وحين كانت العبارة تقرأ ، كانت تعرب وتحلل ، وتفسر كلماتها الصعبة والغريبة ، وتدرس اشتقاقاتها الصرفية، ويبين المعنى المراد ، وتعرف قيمته الأدبية ، وكانت تستعمل لهذا المعجمات والشروح والكتب ذات الحواشي والتعليقات . وكانت الروايات المحزنة والمضحكة تقرأ كذلك ، ولم يعترض أي أب من الآباء على الفحش الكبير الذي يرد في روايات الهزليين .

(٢٣) الامبراطورية البيزنطية (١٩١ ــ ١٩٢) .

وفي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، كان الولد يهجر النحو الى البلاغة ، وكان الطالب يدرس كتب عدة مؤلفين من كتّاب النثر بخاصة ، وكان الأستاذ يقرأ مثالا مختاراً من أسلوب انشائي معين بصوت مرتفع ، ويطلب الى التلاميذ أن ينشئوا موضوعاتهم على مثاله • وفي ذلك العصر الذي كانت الثقافة فيه تتركز في المراسلات، كان لابد من دراسة مفصلة لفن كتابة الرسائل• وكانت الرسائل النموذجية تقرأ بصوت مرتفع في المدرسة ، اذ لابد للرسالة من أن تبرز شخصيةالكاتب ، وأن تكون قصيرة مصوغة بأسلوب بليغٍ صافٍ • وكان لابد من أن تكون اللغة فيها سهلة تتخللها الأمثال الكثيرة • وكان الاهتمام في الكتابة ينصب على المبنى أولا ، وأما المعنى فأهميته أقل من المبنى ومن هنا تبدو لنا مراسلات تلك المدة متكلفة خالية من العنصر الانساني ، وأنها قد تنحط في كثير من الأحيان الى عرضٍ يدل على اطلاع واسع ولكنه جامد لا حياة فيه •

وكانت السنة المدرسية تبدأ في الخريف ، وتدوم دون انقطاع حتى بداية الصيف ، ثم تتبع ذلك العطلة وتدوم أربعة أشهر في فصل الحر • وكانت الدروس تدرس في الصباح ، كما كان بعض الطلاب الكبار يستمعون الى المحاضرات بعد الظهر • وفي أيام الأعياد وميلاد الملوك وغيرها ، كانت المدارس تقفل أبوابها ، وتقام مصارعات الوحوش والألعاب والروايات في دار التمثيل، وحتى الأساتذة المسيحيون لم يروا أدنى ضرر من أن يتردد الطلاب على دور التمثيل • وكانت تفرد أيام للخطابة بين حين وآخر ، يلقى فيها ذوو الكفايات الخطابية من الطلاب أو الأساتذة نماذج خطابية ، ويدعى لسماعها الأصدقاء والآباء • وكثيراً ما كان الطلاب يتمرئون الكسل ، كما كانت المشاجرات شائعة بينهم •

وكانت جامعة أثينا ماتزال في القرن الرابع الميلادي أشهر مركز لدراسات

البلاغة ، والى تلك الجامعة يعزى ما كان قد بقى لها من الأهمية • وكان الطلاب القادمون من نواحي الامبراطورية المختلفة يميلون بالطبيعة الى أن يدرسوا على أساتذة من بنى جلدتهم ، وكان أساتذة الفلسفة في الغالب غرباء • وكان الأساتذة أعداء بعضهم بعضاً في كل مكان ، حتى ان قساً منهم يرى واجباً على طلابهم أن يجعلوا عيش زملائهم منغصاً ما أمكن ذلك • وكان تلاميذ كل أستاذ للفلسفة في أثينا يكونون جماعة متماسكة ، وكانوا يرون أن الاستماع الى أستاذ غيره خيانة كبيرة • وقد بلغت المنافسة بين هذه الجماعات حداً أضحت المعارك معه تنشب بينهم في شوارع أثينا ، وتستعمل فيها الهراوات والحجارة والسيوف • وكثيراً ما كانت الدراسة تهمل ، لتحمس الطلاب يومئذ لألعاب الكرة كما هي الحال اليوم ، بينما كان يقع الكثيرون من الطلاب تحت عبء الدين لتبذيرهم النقود على النساء المنحرفات •

وكان الطلاب يأخذون في دراسة الفلسفة في سن الثامنة عشرة أو العشرين ، وكانت هذه الدراسة تاج التعليم في القرن الرابع الميلادي • وقد كانت الحكومة هي التي تقوم بالانفاق على المعلمين في مدن مثل الاسكندرية والقسطنطينية ، أما في أثينا فقد كانت موارد الجامعة تزداد بما يقدمه الطلاب المتخرجون من هبات ، فتكفى لسد حاجة الأساتذة ، وكان فهم مؤلفات أفلاطون يستلزم معرفة عامة بقواعد الرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك • ومن الصحيح أن العصر كان ينظر الى العلم الطبيعي نظرة ملؤها الريبة ، فكان المسيحي يرى أن الكتاب المقدس قد كشف له عن سر الخليقة ونظامها دفعة واحدة ، وكان من السهل أن ينزلق المرء ويؤخذ في تيار آراء منحرفة عن الدين• حتى الفلسفة اليونانية المتعلقة بما وراء الطبيعة كانت شيئاً مريبا ، والذي يتفرغ لدراسة أرسطوطاليس في القسطنطينية ، لا يسلم من الجمهور الذي كان ينبه السلطات دائماً الى ذلك المجرم ، فاذا كتب عن الاستدلال أو الطبيعيات ، فقد

استحق الموت بلا ريب ، وكانت تسود أهل الاسكندرية مثل تلك الروح التي دفعت احدى العالمات حياتها ثمناً لفلسفتها .

وانتزعت الاسكندرية قصب السبق من أثينا ، وقد ظلت مدرسة الاسكندرية الفلسفية قائمة حتى عشية الفتح الاسلامي . وانتشرت المدارس في جميع أنحاء الامبراطورية ، وظلت اللغة الاغريقية محتفظة بسكانتها في هذه المدارس ، وكان أعاظم الأساتذة ينظرون بازدراء الى اللغة اللاتينية (اللسان الغربى) ، ولم تكن تدرس اللاتينية بحماسة الا حيث كان يدرس القانون الروماني .

وحتى في القرن الرابع الميلادي نفسه ، كانت الثقافة القديمة تقف موقف المدافع عن نفسها ، لأن تسامح الأباطرة مع الفلسفة اليونانية أخذ يقل بالتدريج . وفي سنة (٥٢٩م) صادر جستنيان الموارد التي كان ينفق منها على تعليم الفلسفة في أثينا ، وأرسل أساتذة الفلسفة الى فارس منفيين ، وقرر أن تستقى ثقافة الروم الشرقيين من أصول مسيحية . وقد أغلق فوقاس (٦٠٢م — ٦١٠م) جامعة القسطنطينية ، وحلت محلها مدرسة دينية أيام هرقل ، وكان التعليم في العاصمة دائماً تحت اشراف البطريرك .

وقد شهد القرن التاسع الميلادي نهضة في تعلم الفلسفة والعلم اللذين كانا يلقيان عوناً صادقاً من الأباطرة ، وقد أعاد القيصر بارداس انشاء الجامعة القديمة في القسطنطينية ، وعين لها أساتذة في الهندسة والفلك وفقه اللغة ، ولم تنقطع الدراسات القديمة بعد ذلك الى سقوط القسطنطينية سنة (١٤٠٤م)، غير أن الكنيسة كانت تنظر اليها بعين الريبة .

ولا نسمع عن التعليم القانوني الا قليلا ، فلم يكن في القسطنطينية خلال القرن الحادي عشر الميلادي من الدراسة القانونية شيء يفى بالحاجة ، وقد

أنشئت مدرسة جديدة للقانون في القسطنطينية سنة (١٠٤٥م) ، ولكن لم تبق هذه المدرسة طويلا . وحينما أقبلت أيام الفوضى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، كانت خزينة الدولة لا تستطيع أن تخصص للتعليم الا قليلا جداً من المال . ولا شك في أن الامبراطورية التي لم تكن لتستطيع أن تقوم بما يتطلبه أسطولها ، كانت تعد الجامعة نوعاً من الترف لا مفر من الاستغناء عنه[٢٤] .

ب ــ الأدب :

تغلبت رومة على الدول التي نشأت عن تفكك امبراطورية الاسكندر الكبير الآسيوية ، ولكنها لم تفلح في فرض الحضارة اللاتينية على البلاد التي تحيط بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، فقد كانت الثقافة الهيلينية واسعة الانتشار ثابتة الأساس فيها . وعلى الرغم من محاولة دقليديانوس وخلفائه تشجيع لغة الغرب (اللاتينية) ، فان اللسان الاغريقي ظل يحفظ مكانته . وقد اقتبس هذا اللسان عدة ألفاظ من اللاتينية في مادة الشريعة والادارة مع عدد كبير من الاصطلاحات العسكرية .

لقد كان أدب رومة الشرقية (القسطنطينية) أدباً يونانياً ، وكان أدباً تحصيلياً ، فقد ورث البيزنطيون منقولات الأساتذة الهيلينيين ، وهم رجال لم يحاولوا أن يصوروا حياة عصرهم بقدر ما حاولوا أن يستعيدوا أفكار الماضي المجيد وأعماله ، فصاغ الأدباء البيزنطيون أدبهم على هذا النوال في قوالب قديمة ، فنشأت الهوة التي لاتزال موجودة ، بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة في بلاد اليونان ، فكانت مؤلفاتهم تعوزها السلاسة التي تصدر عن الطبع ،

---

(٢٤) الامبراطورية البيزنطية (١٩٦ ــ ٢١٦) .

لأن الحركة الأدبية البيزنطية اتسمت بالتقليد والتكلف ، وهكذا وقف المؤلفون المسيحيون في ذلك العصر بعيدين عن عصرهم ، فهم يعيشون في مجتمعاتهم المسيحية ويؤلفون لها ، يتكلمون عن الطقوس المسيحية وأعيادها وكأنها أشياء غريبة مجهولة ، فيخيل الينا ونحن نقرؤهم أننا نسمع هيرودتس مرة أخرى يشرح لقرائه اليونان معتقدات المصريين وطقوس عبادتهم العجيبة ، وتتوارد على صفحات كتبهم أفكار الوثنيين عن الحظ والقدر باعتبارهما القوتين الدافعتين الفعالتين في عالم تزدهيه الخيلاء بأرثوذكسيته • وكان البيزنطي القح يعتبر الشكل لا الفحوى أهم شيء عنه ، وكان يحسب أنه لن يستطيع أن يهيء لنفسه مكاناً طيباً في محراب الأدب الا اذا اجتهد مخلصاً في متابعة التقاليد القديمة• وهكذا حافظت رومة الشرقية على تراثها ، وأنفقت جهدها في دراسته عن طريق التعليقات والشروح ، ولكن كان يعوزها التعمق في أسرار الطبيعة والوجود وروح البحث الحر الذي يبدو في مؤلفات المفكرين اليونانيين وكأنه نسيم الصباح العليل ، وتبدو أصالة الأدب البيزنطي في أكمل صورها في اللاهوت والشعر الديني والتاريخ • وقد ظلت القصائد اللاذعة موجودة ، والى تعشق البيزنطيين لهذا اللون من الفن الأدبي يرجع الفضل في بقاء مجموعة من مختاراته اليونانية •

وكان الشعر الكلاسيكي خاضعاً لقواعد أساسها الكم ، وكان تركيب عباراته يقوم على أساس من طول المقاطع • أما في لغة الكلام ، فكان النبر[٢٥] هو ميزان الكلمات ، وكانوا يجعلون الضغط على المقطع المنبور ، وعلى هذا قصرت المقاطع غير المنبورة مهما يبلغ طولها الطبيعي • ونظمت المدائح الدينية المسيحية في شعر ميزانه عدد النبرات ، واستحدث القوافي لتكون رباطاً بين الأبيات • ولما كانت البلاغة تميل الى ازالة الفوارق بين الشعر والنثر بما فيه

(٢٥) النبر في النطق : ابراز احد مقاطع الكلمة عند النطق •

في الموسيقى الايقاعية ، فقد تأثر النثر الفني بالتطور الجديد • ولما كان أدب رومة الجديدة محافظاً قبل كل شيء ، فان غلبة الشعر الذي يوزن بعدد المقاطع ظلت على ما هي عليه ، ولم تهددها النزعة الجديدة بخطر جسيم • وينبغي أن نضيف أن النبر ظل يؤثر في بناء الشعر بصورة متصلة ، وكان له أثر جديد في البحور الشعرية القديمة ، وهذا مثل واضح جداً لقوة التقليد الأدبي •

والمؤثرات الآسيوية بينة بوضوح في الأدب البيزنطي : في كثرة الأخيلة، والبديع ، تلك الكثرة التي قد تبهم العبارة ولا توضحها ، فكان نتاج آباء القرن الرابع الميلادي شديد الزخرف قليل النظام ، ومع ذلك كان خصباً في انسانيته • بيد أننا اذا حاولنا أن نجد هذه الانسانية في الكتابات اللاهوتية ، لم نظفر بغير الحسرة والأسى ، وسيظل المؤرخ واللاهوتي يدرسان هذه الكتابات ، أما القارىء العادي فانه سيطلب متعته في غيرها • وقد استخدمت الفلسفة اليونانية للدفاع عن المسيحية ، ويمكن أن يقال ان عيد الأرثوذكسية (٨٤٣) يرسم نهاية مدة الابداع في اللاهوت وتبدأ مدة التقليد ، اذ فقد تفكير رجال الكنيسة قدرته القديمة على الاستيعاب ، ولم يعد يسمح بأن تتسرب اليه فكرة الفلسفة اليونانية ، وهكذا اصبح الانسانيون في الدولة الشرقية كالهراطقة متهمين في نظر رجال الدين ، وكان علم اللاهوت في الدولة الشرقية منصرفاً تمام الانصراف الى المساجلة العظيمة مع رومة •

أما في ميادين الشعر غير الديني ، فلم توفق بيزنطة ابدا الى شيء متميز من الطبقة الاولى ، فمات الشعر السداسي التفاعيل ، واستعمل من ثم الشعر ذو الاثني عشر مقطعا بانتظام ، غير أن الشعر البيزنطي غير الديني لم يستطع أن ينتج أعمالا ذات نفس طويل • وقد عالج بعض الشعراء القصيدة الصغيرة بنجاح ظاهر • أما الشعر الغنائي فقد مات ، واستبعدت مواضيع الحب المتبادل

بين المرأة والرجل ، وحل محلها شعر الملاحم الشعبية •

وقد نبع الادب البيزنطي من مصدرين ، الاول : أصحاب المثل العليا من بين الرهبان والراهبات وأفكارهم عن العالم الآخر ، وهم الذين كانوا لايعنيهم من شؤون هذه الدار العاجلة الا العثور على فرص يرفضونها ، ويؤكدون بهذا الرفض عزوفهم عن كل ما في هذه الدنيا • والثاني : الواقعيون من رجال البلاط ورجال الدولة والاباطرة ورجال الادارة ، وبذلك أصبح الادب البيزنطي اما أدب العاطفة المشبوبة والخيال المطلق ، واما آثما وغير لائق ، وكان الأدب المحافظ ينفر أن يعترف بالجمال حتى في أغنية ريفية •

وفي النهاية ، ينبغي أن نذكر الأدب الشعبي البيزنطي ، وهو يتألف على الأغلب من الاساطير الاغريقية التي أصابها التكبير والتحوير ، كقصة حصان طروادة ، وسيرة أعمال الاسكندر العظيم ، وقد أصبحتا نموذجا للبطل المسيحي • وفيها كذلك حكايات شرقية منقولة من بعيد ، وقد غلب عليها ثوبها المسيحي • ولعل أمتع عناصر هذا الأدب هي سير القديسين التي كتبها الرهبان المتواضعون للجمهور البسيط ، ومن هذا الادب الشعبي يستفاد الشيء الكثير [٢٦] •

ج ـ الفن :

اضطرت الوثنية واليهودية أن يلجأ المستضعفون في الارض من المسيحيين الى سراديب الارض وكهوف الجبال خوفا من البطش ، وكانت النتيجة أن أصبح الفن المسيحي فنا رمزيا ، فتصاويره المرسومة على الجدران لم تحاول أبدا أن تمثل الحوادث التاريخية • ولكنه استطاع أن يوضح لنفسه رسالته التي تقوم على البشارة والرجاء ، وقد استعان في ذلك بالاشارات الصوفية

(٢٦) الامبراطورية البيزنطية (٢١٧ ـ ٢٣٢) •

التي ابتدعتها المدن اليونانية في الشرق الادنى الذي ظهرت المسيحية في أكنافه • وهكذا تحولت الطائفة المنبوذة من المسيحيين في ذلك العالم المعاصر لها الى عالم الروح سعيا وراء الثقة في النفس وحفز الهمة ، وأصبحت لشارات أهل الاسكندرية التي هي المرساة واليمامة معان أخرى جديدة ، وأصبحت صورة هرمز والكبش على كتفه رمزا للراعي الصالح يحمل الخراف الضالة ، بينما صورت صورة المصلين وهم يصلون بين أزهار الفردوس كأنها رمز للرجاء الوطيد المضمون في خلود الروح •

وعندما انتصر المسيحيون المضطهدون في القرن الرابع الميلادي ، طفر الفن طفرة ليتوج نصر المسيحية ، وظهرت الكنائس الى عالم الوجود بفضل عطف الملوك في كل مكان ، وبدا لمنشئيها أن الرمزية القديمة أكثر سطحية واضطرابا من أن تصلح لتجميل الكنائس • لقد انقضى شتاء المسيحية وأقبل ربيعها ، وكان لابد من رواء فخم يناسبه •

وأعادت رومة الجديدة سيادة الدولة الرومانية بعد اضمحلال مدينة رومة في القرن الثالث الميلادي ، فأضافت الالوان ومهارة الزخرفة التي تضفي على الفخامة الامبراطورية لباسا جديدا من الأبهة ، وأضاف الناس الى تصاوير الحيطان فن الفسيفساء الحائطية وتوسعوا فيه ، لانه كان أقدر على التأثير في النفس وأوسع مجالا وأدق خطوطا ، ولان رسومه ترى واضحة عن بعد : فن يحتاج الى مجال واسع ، ولابد له من عون المهندس المعماري حتى يرقى وينمو •

بيد ان العاصمة الجديدة قامت وسط بلاد تتكلم الأغريقية ، وكانت النزعات الانسانية الاغريقية ، والنماذج العظيمة للجمال الانساني التي ابتدعها الخيال الهليني ، لاتزال ذات أثر عظيم الى جانب فنون الزخرفة والتلوين الشرقية • فقد تجمعت في رومة الجديدة الى جانب المخلفات المقدسة للديانة

المسيحية روائع العالم الوثني ، وأصبحت القسطنطينية متحفا ومدرسة للفن لا تجارى • وكان للكنيسة اذ ذاك قصص عظيم تريد أن تحكيه • فقد أرادت أن تسجل بطولات الفدائيين ، وثبات الشهداء في وجه التعذيب والموت ؛ بل أرادت أن تصبح جدران هياكلها انجيلا مزينا بالرسوم للمتنصرين الأميين ، وتاريخا مصورا لقصة الفداء •

ورفضت الكنيسة أن تقنع بالزينة وحدها ، ففي الفن الجديد المعقد ، الذي سارت به رومة الجديدة للامام ، متسع في الحقيقة لكل شيء : كان فيه متسع للعناصر التصويرية لمدرسة الاسكندرية ، وكذلك للطبيعة وما فيها من أشجار الكروم والأشجار المختلفة الاخرى ، ولمشاهد الألعاب الوثنية ، والمناظر الريفية ، وللحيوانات وألعاب الاطفال العراة على شواطىء الأنهار ، ولكل صور الخيال المبدع ، ومشاهد المواكب الفخمة والقوة ، ومتسع للتلوين السابغ ، ولفخامة النقش الفارسي المتداخل الخطوط المعقد التفاصيل ، ومتسع أيضا لهذه النماذج النبيلة التي أبدعتها الروح اليونانية الانسانية ، بينما أخذت الامبراطورية ما استطاع الشرق تقديمه في فن العمارة ، ورفعته الى طبقة جديدة ، حتى بلغ أوجه في كنيسة القسطنطينية الكبرى • وكانت القسطنطينية في القرنين الرابع والخامس للميلاد واحدة من المراكز التي تؤثر في غيرها ، وكما أن القرن الخامس الميلادي شهد انتصار سياسة التركيز في المسائل الدينية، فقد أخذ تأثير القسطنطينية يتزايد بالتدريج في دائرة الفن لسببين : ان المراكز الاخرى كانت تسعى وراء هبات امبراطورية لكنائسها وأبنيتها المدنية ، والسبب الثاني هو أن الأباطرة كانوا يرغبون عامدين في نشر تأثير العاصمة • وعلى الرغم من أن البنائين كانوا ينتمون الى مراكز كثيرة ، فقد اتجهوا الى تحقيق غاية واحدة ، ماداموا يخدمون سيدا واحدا • وفي زمن جستنيان لم تكن القسطنطينية تخشى أي منافس ، فقد نقل الغرب كنائس رومة الجديدة ، كما

كان يتبع سابقا الأنموذج الذي قرره بيت المقدس من قبل • واذا قلنا ان القسطنطينية قبست القبة وأسلوب الزخرفة القائم على الرخام الكثير الألوان من الشرق ، فاننا نلمس المهارة الاغريقية في الطريقة التي استعملت فيها القباب المعلقة ، حيث كان في الامكان اقامة القبة المستديرة على قاعدة مستطيلة ، برشاقة جعلتها تبدو كما لو كانت معلقة بالسماء • وكان هذا الفن جريئا الى حد عظيم مكنه من أن يدخل في العمارة موضوعات جديدة ، كآلام المسيح الذي تردد أهل العصور التي سبقته في تصويرها ، وتكونت في هذه المدة نماذج الصور المقدسة ، كصور المسيح والعذراء والأنبياء والرسل • بينما أحيا الفن الدنيوي الذي عفت آثاره لسوء الحظ ، انتصارات جستنيان الامبراطورية وقواده •

وبينما كان الطراز التاريخي الذي شاع في عصر جستنيان متجها الى الاضمحلال ، شجع الأباطرة فنا دنيوياً وطبيعياً ، ذلك الفن الذي رجع الى حد كبير الى الماضي يستوحيه ، فتحول الفنانون الى الريف والحياة الحيوانية ، والى المدن والملاعب ، والى الواقعية في تصوير الأشخاص •

وقد ضاعت معظم آثار الفن البيزنطي المدني ، ولكن كثيراً مما كان يميز الامبراطورية البيزنطية عن غيرها تمييزاً واضحاً ــ وهو فن الكنائس ــ لايزال باقيا • وقد بلغت القسطنطينية أعلى درجات تقدمها الفني في ميدان العمارة بما تميز به من ادراك مجيد للألوان في فسيفساء الحوائط والتلبيس بالرخام ، ويلي هذا ذلك الكمال الفني الذي يوفي على الغاية فيما ينبغي أن نسميه بالفنون (الصغرى) ، كالحفر على العاج ، ورسم المنمنمات ، والتزيين بالمينا ، وما ابتدعته من الرسوم على النسيج •

وكثيراً ما أزرى الناس بالفن البيزنطي ، بحجة أنه منحط وعديم الحياة ،

ولكن ظهر في السنين الأخيرة اتجاه متزايد لتقدير قيمته الباقية وأهميته [٢٧] .

د ـ القانون الروماني :

القانون الروماني هو أكثر أعمال الروم أصالة ، وأعظم ما أهدوه لمن أتى بعدهم من الناس . وكان من شأن روح النظام الروماني وروح المحافظة الرومانية ، أن ارتفعا بهذا الأثر المهم وحفظاه من الزوال على مر القرون . ونجد اسم جستنيان المشرع مألوفاً لدى الكثيرين ممن لا يعرفون شيئاً من التاريخ البيزنطي كاسم معروف متداول .

واذا أردنا أن نتتبع تطور ذلك القانون زمن الأباطرة الروم الشرقيين ، استطعنا أن نميز أربعة أدوار رئيسة :

(١) دور التقنين الذي بدأ زمن دقليديانوس وبلغ ذروته في عمل جستنيان.
(٢) دور تشريعات الأباطرة اللاايقونيين .
(٣) دور الرجوع الى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين اللاايقونيين.
(٤) دور الرجوع الى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين .
(٥) دور الاضمحلال .

وينبغي ألا يغيب عنا ، أن القانون في ذلك الحين ، كان تعبيراً عن ارادة الحاكم ، فقد كان الحاكم ينفرد برأيه ويختص نفسه بالتشريع .

عندما حل القرن الثالث الميلادي ، كان عصر البناء والانشاء ، بالنسبة للمشرعين الرومان قد أشرف على النهاية . وفي زمن دقليديانوس بدأ عصر التقنين في تاريخ القانون الروماني ، وقد جمعت حوالي هذا الوقت القوانين الأساسية التي أصدرها الأباطرة منذ هدريان حتى دقليديانوس. وتمت بُعَيْد هذا الوقت مجموعة أخرى للقوانين التي أصدرها دقليديانوس . ويظهر أن

(٢٧) الامبراطورية البيزنطية (٢٣١ ــ ٢٥٢) .

ثيودوسيوس الثاني من سنة (٤٢٩م) قد خطرت له فكرة عمل قانون عـام ، ولكنه انصرف عن مشـروعه ، ولكن مجمـوعة من القوانـين الأساسـية الامبراطورية صُنِّفت على أيدي لجنة عينت سنة (٤٣٥م) ، ونشرت هذه المجموعة سنة (٤٣٨م) ، وأصبح قانون ثيودوسيوس نافذاً في الغرب والشرق في سنة (٤٣٩م) •

غير أن تصنيف هذا القانون الجديد لم يوقف تيار التشريع الامبراطوري، واستمر الاباطرة يصدرون القوانين • ومن هنا نجد أن الغموض والتناقض قد تسرب الى كيان القانون الروماني • وقد شكا جستنيان من ذلك ، وأخـذت القضايا أمام المحاكم تؤجل الى ما لا نهاية له ، وأخذت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة قدر اعتمادها على أهواء القضاة التعسفية •

وكان جستنيان يعتقد أن الامبراطور يحمل عبء واجب مزدوج ، فقد كان عليه أن يكون القائد الفاتح والمشرع الأعلى في الوقت ذاته ، فاذا كانت القسطنطينية قد اتسعت كثيراً عن طريق انتصارات جيوشها وعدل قوانينها ، فواجبه كوارث لماضي رومة أن يكون جديراً بهذا التراث المزدوج ، ولم يكن له مفر والحالة هذه ، من عمل حصرٍ كامل للقانون الروماني •

وقد وجد الامبراطور في وزير القضاء (اكوِستر القصر) تريبونيان رجُله المنشود ، فعهد اليه في رئاسة لجنة مهمتها جمع القوانين التي أصدرها أباطرة الرومان وتنسيقها وحذف المتشابه منها واستخلاص مجموعة قانونية واحدة منها • وقد وفقت اللجنة في عملها ، فصدرت في شهر نيسان (أبريل) من سنة (٥٢٩م) مجموعة جستنيان القانونية التي وضعت على أساس تشريعات جريجوريان وهيرموجيان وثيودوسيوس ، وضمت كذلك قوانـين الأباطرة المتأخرين التي كانت ماتزال نافذة ، وقد نفذ العمل في أقصى سرعة ، ولم يكن المندوبون العشرة في حاجة لوقت يزيد كثيراً عن سنة لانجازه •

ولكن أصالة جستنيان الحقيقية ظهرت في انشاء الموجز (الدايجست) ، فندب لذلك ستة عشر مندوباً جُدُداً ، وكلفهم في سنة (٥٣٠م) بأن يعملوا مجموعة مختارة من أعمال المشرعين العظام ، يستطيع المحترف وغير المحترف الاستفادة منها ، وقدر لاتمام هذا العمل عشر سنوات ، ولكنه تم في مدى ثلاث سنين ، فقد نشر ذلك الموجز على الملأ في كانون الأول (ديسمبر) سنة (٥٣٣م) ، وهكذا أقيم في (١٥٠٫٠٠٠أ) سطر ـــ على حد قول الامبراطور ـــ « معبد للعدالة الرومانية » .

وقد فاق هذا المجموع المستخلص من أعمال المشرعين الرومان الأصول التي استخلص منها ، ومن الطبيعي أن تتوقع ان يكون هناك نقص كبير في تأليفه ، نظراً لقصر الوقت الذي استلزمه تصنيفه ، وقد قيل الكثير في نواقصه، ولكن يجب ألا يغيب عن الناقد أن موهبة التشريع كانت قد اختفت في البلاد الرومانية ، حتى كان القضاة يكتفون بالاستفادة من مؤلفات قدماء المشرعين بعدَّ عناوينها عداً حسابيا ، وأصبح مجرد ذكر عدد المؤلفات التي استعان بها المحامي كانيا لكسبه القضية .

وتبدو عظمة جستنيان في الواقع كمشرع في ادراكه أن قانون أية أمة هو تطور عضوي يوجز تاريخ تلك الامة ، وعلى الرغم من رغبته في تبسيط الاجراءات القانونية الرومانية ، وفي اضفاء انسانية أكبر على عدالة الروم ، فانه لم ينشىء كتاباً موجزاً عملياً فحسب ، بل تعدى ذلك الى ما هو أعظم منه، وخلق عملاً لا نصفه بأحسن من وصفه هو له بقوله : ان قانونه «كالقلعة تحمي خلف جدرانها كنوز الماضي من عاديات الزمن الحسود ، وهو يكشف لأمم الغرب البربرية في الوقت المناسب فكرة دولة تقوم على أساس من القانون » . وقد أصدر جستنيان في تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٥٣٣م) مقدمة للقانون الروماني ـــ سميت النظُم ـــ صيغت على نمط كتيب سابق للمشرع

جايوس ، ولكنها تضم التغييرات التي طرأت على القانون نتيجـة لتشريعات امبراطورية تالية . وهكذا أحل القانون الجديد في سنة (٥٣٤م) محل قانون سنة (٥٣٠م) ، ولم يبق اليوم بين أيدينا الا هذه النسخة الاخيرة . ومايزال لدينا ما يقرب من ستمائة قانون من قوانـين جستنيان الأساسية ، ونشاطـه القانوني واضح في كل مجال ، وقد قرر الامبراطور أنه اتخـذ لنفسه ثلاث قواعد سار عليها في تحقيق اصلاحاته وهي : (الانسانية) و (المنطق الطبيعي) و (المنفعة العامة) .

وبالرغم من أن أباطرة القرن السابع الميلادي كانوا يصدرون قوانين من وقت لآخر ، فقد كانت هذه تتعلق بصفة رئيسة بالادارة العامـة ، أو بعلاقة الكنيسة بالدولة . ولم تحدث تغييرات واسعة النطاق في القانون الخاص الا في عصر الأبـاطرة اللاايقونيين . واذيعت (الاكلوجا Ecloga) في سـنة (٧٣٩م) ، وهي مختارات من القانون أخذت من تشريع جستنيان بعد اجراء تعديلات « في اتجاه أكثر انسانية » ، ولكن باسيل المقدوني ألغى أو قلب أكثر هذه التطورات رأساً على عقب ، فقد رجع مرة أخرى الى قانون القرن السادس للميلاد .

وفي وقت مابين (٨٧٠م) و (٨٧٩م) ، أذيع كتيب جديد يسمى (بروخيرون Procheiron) ليحل محل (الاكلوجا) ، بينما عينت لجنة لتعـد مجموعة قانونية أخرى كاملة ، بعد أن تستبعد من القوانين تلك الأجـزاء الشاذة التي أدخلها محطمو الصور (اللاايقونيون) الهراطقة . وقد جمع بين سنة (٨٧٩م) و (٨٨٦م) كتيب آخر منقح ، ولكنه على ما يرجح لم يقدر له أن تقره الدولة . وانا لنشك فيما اذا كانت مجموعة باسيل التي تقع في أربعين جزءاً قد قدر لها أن تنشر ، ومن المؤكد أننا لا نملك الا القانون المسمى (البازيليكا) (الاوامر الامبراطورية) والذي يقع في ستين كتاباً ، وقد أذاعه ليو السادس الذي خلف

باسيل المقدوني ، وحتى هذا القانون لم يصل الينا كاملا • وكانت مؤلفـات جستنيان لاتزال تدرس حتى بعد ان صدرت البازيليكا ؛ وخصوصاً في القرن الحادي عشر للميلاد ، عندما أسس قسطنطين منوماخوص في سنة (١٠٤٥م) مدرسة للقانون في القسطنطينية ، ولكن كان نشاط هذه المدرسة قصير الأمد• وفي نهاية القرن الثاني عشر للميلاد ، أخذت وجهة النظر القائلة بأن البازيليكا وحدها التي كانت تمثل القانون المعمول به تلقى تأييداً • وحينما أخـذ علم القانون يضمحل ، توقف تطور القانون الروماني الخاص ، وكان ذلك بعد حكم ليو السادس • ثم جاء بعـد ذلك دور الكتيبات والمختصرات ، وأهملت البازيليكا ، وبلغ الاضمحلال أقصاه عند ظهور (الهيخابيلوس Hexabiblos) أي (الكتب الستة) التي ألفت سنة (١٣٤٥م) ، وقد وصفها بعضهم بقوله : انها موجز لموجزات الموجزات ، وأصبح القانون الروماني في أيامه الأخيرة : « خلط قريب من الكفر » •

وكانت المؤثرات الرئيسـة التي أثرت في تطور القـانون الروماني في عصوره المتأخرة التي سبقت دور الاضمحلال :

(١) أثر العاطفة المسيحية العامة •

(٢) تأثير الكنيسـة كهيئة كانت تعبر عن ارادتها في صورة قوانـين تصدرها المجالس والمجامع الدينية •

(٣) العادات الجارية وخصوصاً في الولايات الشرقية •

ومن الطبيعـي أن يمتـزج بعض هـذه العوامـل ببعض بصـورة دائمة ، وقد يكون من الصعب في أية حالة خاصة أن نعين لأي منها كان التأثير الغالب في هذه الناحية أو تلك •

وعن طريق الدراسة الوثيقة لأوراق البردي ، نستطيع أن نتبين أن وحدة القانون الروماني وطابعه العالمي وسريان العمل به في أنحاء الامبراطورية كلها ،

انما كانت مُثُلاً عُليا للأباطرة لم يُقدَّر لها في حالة التطبيق أن تتحقق تحقيقاً كاملا •

وكل ما نستطيع أن نتبينه الآن ، هو أن قوى العادات الموروثة كان لها رد فعل ضد مجهودات الدولة المركزية ، التي أرادت من ورائها فرض قانون واحد على جميع الرعايا على السواء ، وكانت تلك هي غاية جميع الأباطرة الذين خلفوا قسطنطين [٢٨] •

هـ ـ الحضارة :

ما هو الطابع الأساس لهذه الحضارة البيزنطية ؟ طالما قيل : ان دولة رومة الشرقية « كانت امبراطورية شرقية على وجه التحديد » • والواقع أن رومة الشرقية تشربت عناصر شرقية كثيرة في الفن والقانون الجنائي وحتى في نظرتها الى الحكم • الا أن طابع الحضارة الاساس للقسطنطينية لم يقتصر على الشرق وحده ، بل يشمل امتزاج عنصرين موروثين : العنصر اليوناني الذي اتسمت به مدن شرق البحر الأبيض المتوسط الاغريقية ، والعنصر الروماني الذي تلقته رومة الجديدة من الامبراطورية الرومانية الأولى ، وقد كان امتزاج هذين العنصرين الموروثين تاماً الى حد لا نستطيع معه تمييز عناصر أحدهما عن عناصر الآخر •

على أننا يمكننا أن نقول بوجه عام : ان رومة الشرقية كانت يونانية في اللغة والأدب وعلم اللاهوت والديانة ، وان احساسها بذلك كان تاماً واعيا • أما فيما يتصل بقانونها وتقاليدها العسكرية وديبلوماسيتها وسياستها المالية وتمسكها الدائم بسيادة الدولة ، فقد كانت رومانية •

ومع ذلك يبقى تأثير الشرق في الامبراطورية البيزنطية واضحاً للعيان ،

---

(٢٨) الامبراطورية البيزنطية (٢٥٢ ـ ٢٧٢) •

لا ينكره البيزنطيون أنفسهم ، ولا ينكره منصف من غيرهم ، ولكن ليس الشرق هو المؤثر الأول والأخير كما يزعم قسم من الباحثين ، لان تأثير الغرب فيها واضح للعيان أيضاً ، فالحضارة البيزنطية شرقية غربية ، مزيج بين الشرق والغرب : جديد الشرق ، وتليد الغرب (٢٩) .

ومن حق القارىء أن يعرف ، أن قسمي الزراعة والتجارة من بحث : الموارد الاقتصادية ، وبحث : تاريخ بلاد الروم قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه، مقتبسة من كتاب : الامبراطورية البيزنطية (٣٠) ، الذي ألفه نورمان بينز وعربه الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد ، وقد ذكرت هذا المصدر في هوامش هذه الدراسة ، الا أن الأمانة العلمية وواجب الشكر العميق للمؤلف والمعربين الأفاضل حملني على تفصيل هذا الشكر والاقتباس في هذا المكان .

وبعد هذا العرض التاريخي للموارد الاقتصادية البيزنطية ، وللتاريخ البيزنطي منذ قيام القسطنطينية الى سقوطها ، يتضح بجلاء وبشكل لاشك فيه ، أن الدولة البيزنطية كانت احدى الدولتين العظميين في العالم : الدولة البيزنطية ، والدولة الساسانية ، وأنها كانت أقوى الدولتين في أيام الفتح الاسلامي ، لان هرقل امبراطور الروم انتصر على الساسانيين انتصارات حاسمة واسترد البلاد التي كان الساسانيون قد اغتصبوها من الروم ، كما أن حضارة الروم كانت أرقى حضارة عالمية في وقتها ، وكان جيشها عريقاً في تنظيمه وتدريبه وتسليحه وقيادته ، كما كان يتحلى بالمعنويات العالية ، لانتصاره على الساسانيين ، وما كان العرب قبل الاسلام في ميزان القوى والحضارة ينافسون الروم ولا يحلمون بمنافستهم ، وما كان الروم ضعفاء قبل الفتح

(٢٩) الامبراطورية البيزنطية (٣١٤ — ٣١٥) .

(٣٠) Norman H. Baynes, The Byzantine Empire, London 1946.

الاسلامي وفي أيامه المجيدة .

أما بعد الاسلام ، فقد انتصرت الفئة القليلة من العرب المسلمين على الامبراطورية البيزنطية في : بلاد الشام والجزيرة ومصر وشمالي افريقية ، وهددوا الروم في عقر دارهم !!

كيف حدثت المعجزة ؟! ذلك ما نعالجه في فتح بلاد الروم وشيكا .

اباطرة الروم

من قسطنطين الاول الى قسطنطين الحادي عشر (٣١)

١ ــ أسرة قسطنطين

قسطنطين الاول الكبير توفي سنة ٣٣٧ .
قنسطنطيوس ٣٣٧ ــ ٣٦١ حكم منفردا بعد سنة ٣٥١ .
يوليان المرتد ٣٦١ ــ ٣٦٣ حكم منفردا .
يوفيان Jovian ، ٢٦٣ ــ ٣٦٤ حكم منفردا .
فالنس ، ٣٦٤ ــ ٣٧٨ .

٢ ــ أسرة ثيودوسيوس

ثيودوسيوس الاول ، الكبير ٣٧٩ ــ ٣٩٥ حكم منفردا بعد سنة ٣٩٢ .
أركاديوس ٣٩٥ ــ ٤٠٨ .
ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ ــ ٤٥٠ ، كان انثيميوس وصيا من سنة ٤٠٨ــ٤١٤ .
مارقيان Marcian ٤٥٠ ــ ٤٥٧ .

(٣١) نقلا عن كتاب : الحضارة البيزنطية ــ ستيفن رونسمان ــ لندن ــ ١٩٤٨ ، انظر الامبراطورية البيزنطية (٣٩٩ ــ ٤٠٩) .
Steven Runciman : Byzantine Civilization, pp. 3.1 (London 1948).

٣ ـ أسرة ليو

ليو الاول ٤٥٧ ــ ٤٧٤ .
ليو الثـاني ٤٧٤ .
زينون ٤٧٤ ــ ٤٩١ ، باسيليكوس المغتصب ٤٧٥ ــ ٤٧٦ .
أناستاسيوس الاول ٤٩١ ــ ٥١٨ .

٤ ـ أسرة جستنيان

جستين الاول ٥١٨ ــ ٥٢٧ .
جستنيان الاول ٥٢٧ ــ ٥٦٥ .
جستين الثـاني ٥٦٥ ــ ٥٧٨ ، صوفيا وصية من ٥٧٣ الى ٥٧٤ ، وطيباريوس وصيا من ٥٧٤ الى ٥٧٨ .
طيباريوس الثاني ٥٧٨ ــ ٥٨٢ .
موريس ٥٨٢ ــ ٦٠٢ ، ثيودوس شريك في العرش ٥٠٩ ــ ٦٠٢ .
فوكاس Phocas ٦٠٢ ــ ٦١٠ .

٥ ـ أسرة هرقـل

هرقل الاول ٦١٠ ــ ٦٤١ ، قسطنطين الثالث ٦١٣ ــ ٦٤١ ، وهرقليوناس ٦٣٨ ــ ٦٤١ .
قسطنطين الثالث ٦٤١ مارتينة Martina وصية ٦٤١ .
قسطانز الثاني ٦٤١ ــ ٦٦٨ وهرقل وطيباريوس ٦٥٩ ــ ٦٨١ .
قسطنطين الرابع ٦٦٨ ــ ٦٨٥ .
جستنيان الثـاني ٦٨٥ ــ ٦٩٥ .
ليوتيوس ٦٩٥ ــ ٦٩٨ .

طيباريوس الثالث ٦٩٨ ــ ٧٠٥ .
جستنيان الثاني ٧٠٥ ــ ٧١١ ، للمرة الثانية طيباريوس ٧٠٦ ــ ٧١١ .
فليبكوس ٧١١ ــ ٧١٣ ، وباردانس Bardanes معه .
انستاسيوس الثاني ٧١٣ ــ ٧١٥ ، وأرتيوس Artemius
ثيودوسيوس الثالث ٧١٥ ــ ٧١٧ .

٦ ــ الأسرة الأيسورية

ليو الثالث الأيسوري ٧١٧ ــ ٧٤٠ ، وقسطنطين الخامس ٧٢٠ ــ ٧٤٠ .
قسطنطين الخامس ٧٤٠ ــ ٧٧٥ ، وليو الرابع ٧٥٠ ــ ٧٧٥ .
ليو الرابع ٧٧٥ ــ ٧٨٠ وقسطنطين السادس ٧٧٦ ــ ٧٨٠ .
قسطنطين السادس ٧٨٠ ــ ٧٩٧ ايريني وصية ٧٨٠ ــ ٧٩٠ ، ٧٩٢ ــ ٧٩٧ .
ايريني ٧٩٧ ــ ٨٠٢ .
نقفور الاول ٨٠٢ ــ ٨١١ .
ستوراكيوس ٨١١ .
ميخائيل الاول ٨١١ ــ ٨١٣ .
ليو الخامس ، الأرمني ٨١٣ ــ ٨٢٠ .

٧ ــ الأسرة العمورية (الفريجية)

ميخائيل الثاني ، العموري ٨٢٠ ــ ٨٢٩ ، وثيوفيلوس ٨٢١ ــ ٨٢٩ .
ثيوفيلوس ٨٢٩ ــ ٨٤٢ .
ميخائيل الثالث ، السكير ٨٤٢ ــ ٨٦٧ ، وثيودورا وصية ٨٤٢ ــ ٨٥٦ ، وباراس وصيا ٨٦٢ ــ ٨٦٦ ، وباسيل الاول ٨٦٦ ــ ٨٦٧ .

٨ ــ الأسرة المقدونية

باسيل الاول المقدوني ٨٦٧ ــ ٨٨٦ وقسطنطين ٨٦٩ ــ ٨٨٠ ، وليو السادس

٨٧٠ ــ ٨٨٦ ، والاسكندر ٨٧١ ــ ٩١٢ ٠

ليو السادس ، الحكيم ٨٨٦ ــ ٩١٢ ، وقسطنطين السابع ٩١١ ــ ٩١٣ ٠

الاسكندر ٩١٢ ــ ٩١٣ ٠

قسطنطين السابع ، الأرجواني ٩١٣ ــ ٩١٩ ، ومجلس وصاية ٩١٣

وصية ٩١٣ ــ ٩١٩ ٠

رومانوس الاول ٩١٩ ــ ٩٤٤ ، وقسطنطين السابع ٩١٩ ــ ٩٤٤

وكرستوفر ٩٢١ ــ ٩٣١ وستيفن ليكابينوس ٩٢٤ ــ ٩٤٥

وقسطنطين ليكابينوس ٩٢٤ ــ ٩٤٥ ٠

قسطنطين السابع ، ٩٤٤ ــ ٩٥٩ ورومانوس الثاني حوالي ٩٥٠ ــ ٩٥٩ ٠

بورفيروجينتوس

رومانوس الثاني ٩٥٩ ــ ٩٦٣ ، وباسيل الثاني ٩٦٠ ــ ٩٦٣

وقسطنطين الثامن ٩٦١ ــ ١٠٢٥ ٠

باسيل الثاني ، سفاح البلغار ٩٦٣ ، ثيوفانو وصية ٩٦٣ ٠

نقفور الثاني ، فوكاس ٩٦٣ ــ ٩٦٩ ، وباسيل الثاني ٩٦٣ ــ ٩٧٦ ٠

يوحنا الاول ٩٦٩ ــ ٩٧٦ ٠

باسيل الثاني ، سفاح البلغار ٩٧٦ ــ ١٠٢٥ ٠

قسطنطين الثامن ١٠٢٥ ــ ١٠٢٨ ٠

رومانوس الثالث ، أرجيروس ١٠٢٨ ــ ١٠٣٤ ٠

ميخائيل الرابع ١٠٣٤ ــ ١٠٤١ ٠

ميخائيل الخامس ، الشماع ١٠٤١ ــ ١٠٤٢ ٠

زوى وثيودورا ، الارجوانيتان ١٠٤٢ ٠

قسطنطين التاسع ١٠٤٢ ــ ١٠٥٥ ٠

ثيودورا ، الارجوانية ١٠٥٥ ــ ١٠٥٦ ٠

ميخائيل السادس ١٠٥٦ ــ ١٠٥٧ ٠
اسحق الاول ، كومنينوس ١٠٥٧ ــ ١٠٥٩ ٠

٩ ــ أسرة دوكاس

قنسطنطين العاشر ، دوكاس ١٠٥٩ ــ ١٠٦٧ ، وميخائيل السابع حوالي ١٠٦٠ ــ ١٠٦٧ ٠
ميخائيل السابع ١٠٦٧ ــ ١٠٦٨ ، وايدوفيا وصية ١٠٦٧ ــ ١٠٦٨ ٠
رومانوس الرابع ، ديوجينيس ١٠٦٨ ــ ١٠٧١ ، وميخائيل السابع ١٠٦٨ ــ ١٠٧١ ٠
ميخائيل السابع ١٠٧١ ــ ١٠٧٨ ٠
نقفور الثالث ١٠٧٨ ــ ١٠٨١ ٠

١٠ ــ أسرة كومنين

ألكسيوس الاول ، كومنينوس ١٠٨١ ــ ١١١٨ ، وقسطنطين دوكاس ١٠٨١ حوالي ١٠٩٠ ويوحنا الثاني ١٠٩٢ ــ ١١١٨ ٠
يوحنا الثاني ، كالوجوهانيز ١١١٨ ــ ١١٤٣ ، وألكسيوس ١١١٩ ــ ١١٤٢ ٠
مانويل الاول ١١٤٣ ــ ١١٨٠ ، وألكسيوس الثاني ١١٧٢ ــ ١١٨٠ ٠
ألكسيوس الثاني ١١٨٠ ــ ١١٨٣ ومارتة الانطاكية وصية ١١٨٠ ــ ١١٨٢ وأندرونيكوس الاول ١١٨٢ ــ ١١٨٣ ٠
أندرونيكوس الاول ١١٨٣ ــ ١١٨٥ ٠

١١ ــ أسرة أنجيل

اسحاق الثاني ، أنجيلوس ١١٨٥ ــ ١١٩٥ ٠
ألكسيوس الثالث ١١٩٥ ــ ١٢٠٣ ٠

ألكسيوس الرابع ١٢٠٣ ــ ١٢٠٤ واسحق الثاني ١٢٠٣ ــ ١٢٠٤ ٠
ألكسيوس الخامس ١٢٠٤ ٠

١٢ ــ أسرة الأشاكرة

(امبراطورية نيقية ، ١٢٠٤ ــ ١٢٦١)
ثيودور الاول الأشكري ١٢٠٤ ــ ١٢٢٢ ٠
يوحنا الثالث ، دوكاس فاتاتزيس ١٢٢٢ ــ ١٢٥٤ ٠
ثيودور الثاني الأشكري ١٢٥٤ ــ ١٢٥٨ ٠
يوحنا الرابع ، دوكاس فاتاتزيس ١٢٥٨ ٠

١٣ ــ أسرة باليولوجوس

ميخائيل الثامن ، باليولوجوس ١٢٥٨ ــ ١٢٨٢ ، وأندرونيكوس الثاني ١٢٧٢ ــ ١٢٨٢ ٠
أندرونيكوس الثاني ١٢٨٢ ــ ١٣٢٨ ، وميخائيل ١٢٩٥ ــ ١٣٢٠ واندرونيكوس الثالث ١٣٢٥ ــ ١٣٢٨ ٠
أندرونيكوس الثالث ١٣٢٨ ــ ١٣٤١ ٠
يوحنا الخامس ١٣٤١ ــ ١٣٤٧ ، وحنة أميرة سافوي وصية ١٣٤١ــ١٣٤٧ ٠
يوحنا السادس ، كاتاكوزيني ١٣٤٧ ــ ١٣٥٥ ، ويوحنا الخامس ١٣٤٧ ــ ١٣٥٥ وماتيو كاتاكوزيني ١٣٤٨ ــ ١٣٥٥ ٠
يوحنا الخامس ١٣٥٥ ــ ١٣٧٦ ٠
أندرونيكوس الرابع ١٣٧٦ ــ ١٣٧٩ ويوحنا السابع ١٣٧٦ ــ ١٣٩٠ ٠
يوحنا الخامس ١٣٧٩ ــ ١٣٩٠ ، وأندرونيكوس الرابع ١٣٧٩ ــ ١٣٨٥ ومانويل الثاني ١٣٧٦ ــ ١٣٩١ ٠
يوحنـا السابع ١٣٩٠ ٠

يوحنا الخامس ١٣٩٠ـ ١٣٩١ •

مانويل الثاني ١٣٩١ ـ ١٤٢٥ ، ويوحنا السابع ١٣٩٩ ـ ١٤١٢

ويوحنا الثامن ١٤٢٣ ـ ١٤٢٥ •

يوحنا الثامن ١٤٢٥ ـ ١٤٤٨ •

قسطنطين الحادي عشر ١٤٤٨ ـ ١٤٥٣ •

دراجاسيس •

ملاحظة :

كان بعض اباطرة الدولة البيزنطية يشتركون في الحكم كشركاء للامبراطور القائم أو معاونين له قبل أن ينفردوا بالسلطان .

وقد وضعنا اسماءهم حين حكموا على هذه الصورة ازاء الأباطرة الذين شاركوهم في الحكم ، ثم عدنا فكتبنا اسماءهم في قائمة الاباطرة الرئيسة عندما تولوا الحكم .

ارجو ملاحظة ذلك عند دراسة هذه القائمة .

فتح بلاد الروم

١ ـ الموقف العـام :

أ ـ كان العرب قبل الاسلام ، على صلة وثيقة بالروم حكومة وشعبا ، فقد كان سكان الجزيرة عربا ، وكانوا أغلب سكان هذا الاقليم الذي يقع بين النهرين : دجلة والفرات ، وكانت الجزيرة تحت حكم الروم ، كما ذكرنا ذلك في بحث : بلاد الجزيرة .

وكانت دولة الغساسنة العربية قبل الاسلام في جزء من بلاد الشام ، وقد قامت هذه الدولة للروم مقام دولة المناذرة في العراق للفرس ، فكانت دولة حاجزة اتخذ الروم منها مجنا [٣٢] يقيهم شر هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء من جهة ، وليثيروهم ضد الفرس ويستعينوا بهم عليهم من جهة أخرى[٣٣] ، فكان عرب الجزيرة والغساسنة على صلة قوية وتعاون مستمر بالروم وبعرب الجزيرة العربية وبخاصة تجار قريش .

وقد ذكرنا في الحديث عن طرق التجارة البيزنطية التي تصل الشرق الاقصى ببلاد الروم وبالعكس ، أن أحد تلك الطرق الثلاثة المهمة ، وهو طريق الهند والصين البحري عبر البحر الاحمر ، يمر بمكة باعتبارها مركزا مهما للتجارة قبل الاسلام ، ويتصل بتجارته أهل مكة العاملون بالتجارة ، مما يؤدي الى التعارف والاتصال .

---

(٣٢) المجن : الترس .

(٣٣) كتاب : عصر ما قبل الاسلام ـ محمد مبروك نافع (١١١) ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ ـ ط ٢ .

وفي سورة قريش المكية : (لايلاف قريش • ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) [٣٤] ، وكانت رحلة تجار قريش الى اليمن شتاءا لانها دافئة ، ورحلتهم الى الشام صيفا لانها باردة ، فيمتارون ويتجرون [٣٥] ، وكانت بلاد الشام يومئذ من أملاك الروم ، مما أدى الى اتصال العرب بالروم مباشرة في هذه الرحلة وفي المعاملات التجارية ، فكان لقسم من تجار قريش من أهل مكة وتجار الأوس والخزرج من أهل المدينة معرفة شخصية بحكام الروم ومنهم الأمبراطور وبشعب الروم من التجار ورجال الدين المسيحي ، كما سيرد ذكره قريبا •

وقد سافر النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث مرتين الى بلاد الشام• مرة مع عمه أبي طالب في تجارته [٣٦] ، ومرة مع ميسرة غلام خديجة بنت خويلد بعد زواج النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة [٣٧] ، فعرف بلاد الشام وعرف الروم •

وقصة الشاعر الجاهلي أمرىء القيس الذي قصد قيصر الروم يستمده معروفة ، فلما صار امرؤ القيس الى ملك الروم أكرمه ونادمه ، واستمده فوعده ذلك ، وقد وصف أمير الشعراء الجاهليين سفره الى بلاد الروم ولقاءه بملك الروم في شعره الرائع ، ولاتزال كتب الأدب تحفل بهذا الشعر المتين [٣٨] ، وهذا يدل على عمق الصلة بين العرب في جاهليتهم وبين الروم •

---

(٣٤) الآيتان الكريمتان من سورة قريش (١٠٦ : ١ ــ ٢) •
(٣٥) انظر تفسيرها في : الكشاف (٢٨٩/٣ ــ ٢٩٠) وابن كثير (٣٠٤/٩ــ٣٠٧) والبغوي (٣٠٤/٩ــ٣٠٧) والجامع لاحكام القرآن (٢٠٠/٢٠ــ٢٠٩) وفي ظلال القرآن (٢٦٠/٣٠ــ٢٦١) •
(٣٦) سيرة ابن هشام (١٩٤/١) •
(٣٧) سيرة ابن هشام (٢٠٣/١) •
(٣٨) الشعر والشعراء ــ ابن قتيبة (٦٠/١ ــ ٦٢) ــ لبنان ــ ١٩٦٤ •

ب ــ وجاء الاسلام ، فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليه سراء ثم أصبحت الدعوة الى الاسلام علنية ، فاشتد عضد الاسلام والمسلمين باقبال الناس على اعتناقه ، حتى أصبح خطرا يتهدد مصير المشركين من قريش في مكة ، وكان مولد الاسلام في ١٧ رمضان الموافق ٦ آب (أغسطس) من سنة (٦١٠ م) [٣٩] .

وكانت الحرب مستعرة بين الروم والفرس ، بدأت سنة (٦١٠ م) وانتهت سنة (٦٢٨ م) ، وفي تلك الحرب انتصر الفرس على الروم في صفحتها الاولى ، فاحتلوا ارمينية والجزيرة وبلاد الشام والقدس واستولوا على العود المقدس للصليب ، واحتلوا مصر والعراق وهاجموا القسطنطينية واحتلوا مناطق شاسعة من آسيا الصغرى ، واستمرت انتصارات الفرس على الروم حتى سنة (٦٢٢ م) ، حيث أعاد الروم الكرة على الفرس ، فاستعاد الروم ارمينية ، وانتصروا على الفرس في معركة (نينوى) الحاسمة سنة (٦٢٧م) ، وفي سنة (٦٢٨م) كتب ملك الفرس الى هرقل ملك الروم يطلب الصلح ، فصالحه هرقل على شروط أهمها : العودة الى الحدود القديمة ، واطلاق الاسرى ، وارجاع الصليب المقدس ، فقبل شيرويه ملك الفرس هذه الشروط [٤٠] . واحتدم الجدل بين المسلمين الأولين السابقين الى الاسلام بمكة قبل الهجرة وبين المشركين ، ولما كان الروم أهل كتاب دينهم النصرانية ، وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وقالا بانتصار ملة الكفر على ملة الايمان . ومن ثم نزلت الآيات الاولى من سورة الروم : (ألم . غُلِبَت الروم . في

(٣٩) سيرة خاتم النبيين (٤٣) ــ ابو الحسن علي الحسني الندوي ــ بيروت ــ ١٣٩٨ هـ ــ ط ٢ .
(٤٠) الروم ــ اسد رستم (١/٢٢٢ ــ ٢٢٧) .

أدنى الارض ، وهم من بعد غَلَبِهم سيغلِبون • في بضع سنين ، لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم) [٤١] تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الايمان من كل دين [٤٢] • لقد كان المسلمون منحازين بعاطفتهم الى الروم ، أما كفار العرب فكانوا يميلون الى الفرس ، وشبيه الشيء منجذب اليه ، ولا أدل على ذلك من أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه راهن أبي بن خلف وهو من وجوه كفار قريش على مائة بعير أن الروم سينتصرون [٤٣] • ان احتدام الجدل بين المسلمين والمشركين حول الروم ، دليل على تطلع الجانبين على اخبارهم وتتبع الأخبار واقتناصها ، ولا يكون ذلك الا لأهمية الروم في نفوس العرب بالرغم من تناقض عقيدتهم •

ج ــ وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، وهاجر معه من هاجر من المسلمين ، فازداد تماس المسلمين بالروم في السلام والحرب •

فقد أقبل دِحيَة بن خليفة الكلبي [٤٤] من عند قيصر الروم وقد أجازه وكساه ، وكان من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي طريق عودته الى المدينة المنورة لقيه الهُنَيد بن عارض وابنه عارض بن الهنيد في

---

(٤١) الآيات الكريمة من سورة الروم (٣٠ : ١ ــ ٥) •
(٤٢) انظر تفسير الآيات الكريمة في : ظلال القرآن (٢١/٢٠ ــ ٢٢) وصفوة التفاسير (١٢/٦) •
(٤٣) الروم (١/٢٢٤) ، وابى بن خلف بن وهب بن جمح القرشي الجمحي ، قتل مشركا يوم احد ، انظر جمهرة انساب العرب (١٥٩) •
(٤٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم •

ناس من بني جُذام ب (حِسْمى) [٤٥] ، فقطعوا عليه الطريق ، ولم يتركوا عليه الا سَمَل ثوب ، فسمع بذلك نفر من بني الضُبَيب ، فنفروا اليهم ، واستنقذوا لدحية متاعه •

وقدم دحية على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك ، فبعث زيد ابن حارثة الكلبي[٤٦] في خمسمائة رجل، ورد معه دحية ، فأدبت سرية زيد بني جُذام وقتلت الهنيد وابنه [٤٧] ، وهذا يدل أن قسما من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم علاقة بملك الروم ، كما أن بادية الشام التي تقع فيها (حِسمى) كانت تحت نفوذ الغساسنة حلفاء الروم ، ومهاجمة من فيها مهاجمة مباشرة للروم لأن جذام حلفاؤهم •

وكانت سرية حسمى في جمادي الآخرة من السنة السادسة الهجرية (٦٢٧ م) •

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى (مؤتة) [٤٨] في جمادي الأولى سنة ثمان الهجرية (٦٢٩م) زيد بن حارثة الكلبي في سرية مؤلفة من ثلاثة آلاف مجاهد • وكان سبب بعث هذه السرية ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب الى ملك (بُصرى)[٤٩] بكتاب ،

---

(٤٥) حسمى : ارض ببادية الشام ، بينها وبين وادي القرى ليلتان ، وبين وادي القرى والمدينة ست ليال ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٧٦) •

(٤٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة النبي صلى الله عليه وسلم •

(٤٧) طبقات ابن سعد (٢/٨٨) ومغازي الواقدي (٢/٥٥٥ — ٥٦٠) •

(٤٨) مؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٩٠) وهي بادنى البلقاء دون دمشق ، انظر طبقات ابن سعد (٢/١٢٨) ، والبلقاء : هي الاردن الحالية •

(٤٩) بصرى : مدينة من اعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٠٨) •

فلما نزل مؤتة عرض له شُرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ، ولم يُقتَل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه ، وندب الناس ، فأسرعوا وعسكروا بالجرف [٥٠] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمير الناس زيد بن حارثة ، فان قُتل فجعفر بن أبي طالب ، فان قُتل فعبدالله بن رَواحة ، فان قُتل فليرتَضِ المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم » •

واستشهد القادة الثلاثة بالتعاقب ، واصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فسحب قوات المسلمين من ميدان المعركة ، لانقاذهم من معركة خاسرة تجاه تفوق العدو العَدَدِي والعُدَدِي [٥١] •

وهكذا التقى المسلمون لأول مرة بقوات الغساسنة المتفوقة ، والغساسنة حلفاء الروم الأقربون ، ولقاؤهم كلقاء الروم لا فرق بينهما في شيء • ولم ينتصر المسلمون في هذه المعركة انتصاراً مادياً ، بل انتصروا انتصاراً معنوياً ، فأصبح لديهم خبرة بسكان المنطقة وأساليبهم القتالية وطبيعة أرضهم ، وهذا ما انتفع به المسلمون في معارك الفتوح •

وفي رجب من السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م) كانت غزوة تبوك [٥٢] ، فقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هِرَقل امبراطور الروم قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لَخْم وجُذام وعامِلة وغسان ، وقدموا مقدَّماتهم الى البلقاء ، فسار عليه

---

(٥٠) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٨٦) .
(٥١) طبقات ابن سعد (٢/١٢٨ ـ ١٣٠) ومغازي الواقدي (٢/٧٥٥ ـ ٧٦٩) .
(٥٢) تبوك : موضع بين وادي القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٧٦٥) .

الصلاة والسلام على رأس ثلاثين ألف مجاهد الى تَبُوك منهم عشرة آلاف فارس ، وكان الروم قد أكملوا تحشد قواتهم المؤلفة من جنودهم النظاميين ومن القبائل العربية الموالية للروم في تبوك قبل وصول المسلمين اليها ، ولكن المعلومات التي وصلت اليهم عن ضخامة جيش المسلمين ومعنوياتهم العالية اضطرت الروم الى الانسحاب من تبوك شمالا . ويبدو أن الروم لم يقدروا خطورة هذه الغزوة وأهميتها ، وحسبوها غارة من غارات البدو التي تنقشع بسرعة دون أن تترك أثراً باقياً وتأثيراً كبيراً ، لذلك انسحبوا تلافياً لخسائر لا مسوغ لها . أما المسلمون ، فكان انتصارهم مادياً اذ صالحوا صاحب (أيلة)[٥٣] ومناطق أخرى من بلاد الشام ، وكان انتصارهم معنوياً ، اذ ارتفعت معنوياتهم ، فكانت هذه الغزوة فاتحة لفتح بلاد الروم[٥٤] .

د ـ وفي هذه الغزوة ، وهي غزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، تخلف ثلاثة من الصحابة دون عذر مشروع ، ولما عاد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الذين كانوا معه من تبوك الى المدينة المنورة ، اعترف هؤلاء المتخلفون بذنبهم في تخلفهم . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامهم ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم ، حتى تنكرت لهم أنفسهم والارض ، فما هي بالارض التي كانوا يعرفون ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة . وكان أحد المتخلفين الثلاثة وهو كعب بن مالك[٥٥] ، أشب

(٥٣) ايلة : مدينة على ساحل البحر الاحمر مما يلي الشام ، وهي آخر الحجاز واول الشام ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١/٢٩١) .
(٥٤) الرسول القائد (٣٨٧ ـ ٣٩٤) .
(٥٥) كعب بن مالك : انظر سيرته في الاستيعاب (٣/١٣٢٣) واسد الغابة (٤/٢٤٧) والاصابة (٥/٣٠٨) . والاستبصار في نسب الصحابة من الانصار (١٦٠ ـ ١٦٢) .

القوم وأجلدهم، وكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق، ولا يكلمه أحد . قال : « ثم غدوت الى السوق ، فبينما أنا أمشي بالسوق ، واذا نبطي [٥٦] يسأل عني من نبط الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فجعل الناس يشيرون له اليّ ، حتى جاءني ، فدفع الي كتاباً من مَلِك غسان وكتب كتاباً في سَرَقة [٥٧] من حرير، فاذا فيه : أما بعد ! فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك ، فعمدت بها الى تنور فسجرته [٥٨] بها » .

وقصة اتصال النبطي بكعب بن مالك ، يدل على أن الغساسنة حلفاء الروم كانوا يترصدون حركات المسلمين وسكناتهم ، وأن مخابرات هؤلاء كانت يقظة أشد اليقظة ، تراقب المسلمين وتعرف تفاصيل أخبارهم، وأنهم كانوا يحاولون انتهاز الفرص لشق الصفوف واثارة الاحقاد والنعرات والاختلافات بين المسلمين .

ولكن المسلمين لم يكونوا يجهلون نشاط الغساسنة المعادي في اقتناص المعلومات عن أحوال المسلمين وعن قوة جبهتهم الداخلية وضعفها ، وعن آمال المسلمين وآلامهم ، فقد كانوا يراقبون هذا النشاط مراقبة دقيقة ، ولديهم

---

(٥٦) نبطي : نسبة الى النبط ، وهم الانباط . والانباط : شعب سامي ، كانت له دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية ، وعاصمتهم : سلع ، وتعرف اليوم بـ (البتراء) . والانباط : المشتغلون بالزراعة ، واستعمل اخيرا في اخلاط الناس من غير العرب .

(٥٧) سرقة : شقة من الحرير ، ويقال : السرق : احسن الحرير واجوده .

(٥٨) سجرته بها : اي احرقتها ، والهبت بها التنور .

وسـائلهم الخاصـة في مكافحة المخابرات المعادية من جهة في الداخل ، وتسرب مخابراتهم للحصول على المعلومات عن الروم وحلفائهم من جهـة أخرى في الخارج ، فكانوا يحمون أنفسهم من مخابرات العدو داخلياً وخارجيا . ولعل ايمان المسلم الراسخ ـ كما هو الحال في قصة كعب ـ هو المعيل الواقي من محاذير المخابرات المعادية .

ومن الواضـح ، أن الغساسنة كانوا يبلغون الروم بالمعلـومات التي يحصلون عليها عن المسلمين ، وبخاصـة اذا كان لتلك المعلومات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالموقف العسكري الذي يؤثر في مصير الغساسنة والروم [٥٩].

هـ ـ وتصاعدت الاتصالات بين المسلمين والروم وحلفائهم في السـنة السـادسة الهجرية (٦٢٧م) ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي [٦٠] الى هرقل امبراطور الروم والى الأسقف الأعظم في الروم ، وبعث شجاع بن وهب الاسدي [٦١] الى الحارث بن شمر الغساني ملك الغساسنة في بـلاد الشـام ، وحاطب بن أبي بلتعـة اللخمي [٦٢] الى المقوقس ملك

(٥٩) لبث المخلفون الثلاثة خمسين ليلة يقاطعهم المسلمون مقاطعة صارمة ويهجرهم أهلوهم حتى زوجاتهم ، ثم تاب الله عليهم ، بعد مانزل بهم ما نزل من عقاب نفسي صارم ، ليتوبوا ولا يعودوا الى التخلف مرة أخرى، نشرط التوبة النصوح الابتعاد عن الذنوب . وقد انزل الله في التوبة عليهم: (وعلى الثلاثـة الذين خلفـوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم ، وظنوا الا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم) ، التوبة (٩ : ١١٨) .

(٦٠) دحية بن خليفة الكلبي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ٩٠.

(٦١) شجاع بن وهب الأسدي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٦٢) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

الاسكندرية وهو قيرس بطريرك الاسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر ، بعثهم يدعو هؤلاء الملوك والرؤساء الى الاسلام ، وكانت بلاد الشام ومصر في حينه ضمن ممتلكات الامبراطورية البيزنطية ، اذ وصل هؤلاء الدعاة أو السفراء في هذه السفارات النبوية في السنة السابعة الهجرية (٦٢٨م) ، وكانت هذه البلاد قد عادت الى الروم بعد اندحار الساسانيين كما سبق ذكره •

وبارسال هؤلاء السفراء الى هؤلاء الملوك ، اتضحت الرؤية بالنسبة للروم وحلفائهم والمسلمين ، نعرف كل طرف منهم ما يريده صاحبه منه ، وما يستطيع أن يتقبله وما لا يستطيع ، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون امبراطور الروم وملك الغساسنة ومقوقس مصر عن كثب ، وعرفوا حقيقة نواياهم تجاه الدين الجديد •

كما عرف امبراطور الروم وملك الغساسنة ومقوقس مصر ما يريد النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فتحقق ما كان يسمعونه بما رأوه عيانا •

وأراد قيصر الروم استقصاء أخبار النبي صلى الله عليه وسلم من أبناء جلدته العرب ، فاستدعى جماعة من تجار العرب — كما روى الامام البخاري في صحيحة من حديث ابن عباس رضي الله عنه — وكان بين الذين استدعاهم هرقل أبو سفيان بن حرب ، فسأل أبا سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أخباره ، وناقشه في أقواله مناقشة مستفيضة [٦٣] ، وقد كتب هرقل الى النبي صلى الله عليه وسلم جواباً على رسالته ، وبعث بكتابه الجوابي مع

---

(٦٣) التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح (١/٧ — ٨) وفتح البارى بشرح البخاري (١/ ٢٠ — ٢٨) ، وانظر البداية والنهاية (٤/٢٦٤ — ٢٦٥)•

دحية [٦٤] ، ويبدو أن قلب هرقل مال الى الاسلام ، ولكنه خاف من الروم على مصيره ان هو أعلن اسلامه [٦٥] .

أما الحارث بن شَمِر الغساني فلم يسلم ، وأراد أن يسير الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فمنعه هرقل من المسير اليه ، وأمره بالتريث حتى يلقاه بالقدس وشيكا [٦٦] .

وأما المقوقس ، فقد أكرم سفير النبي صلى الله عليه وسلم وأحسن نزله [٦٧] ، وبعث معه هدايا الى النبي صلى الله عليه وسلم [٦٨] .

لقد كان في هذه السفارات كسب معنوي لاشك فيه ، فقد ازداد اطلاع الروم وحلفائهم على الدين الجديد وعلى أخبار المسلمين ، واتجه تفكير الناس في بلاد الروم وبلاد الشام ومصر الى الاسلام والمسلمين . كما ازداد اطلاع المسلمين على نظام الحكم في تلك الاصقاع ، واحوال سكانها ومصدر قوتهم وضعفهم ، وطبيعة أرضهم ، مما كان له أثر في الفتح لا يمكن تجاهله ولا التقليل من قيمته وأهميته .

ونستطيع أن نلخص الموقف العام قبل الفتح الاسلامي للبلاد التي كانت تحكم من الروم ولبلاد الروم الأصلية ، بالنسبة للعلاقة بين العرب والروم قبل الاسلام ، وبالنسبة للعلاقة بين المسلمين والروم بعد الاسلام على عهد النبي

---

(٦٤) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١) .
(٦٥) الطبري (٦٤٩/٢ ـ ٦٥٠) وابن الاثير (٢١١/٢) .
(٦٦) طبقات ابن سعد (٢٦١/١) ، وانظر ابن الاثير (٢١٣/٢) والبداية والنهاية (٢٦٨/٤) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٣/١) .
(٦٧) فتوح المغرب (٦٧) .
(٦٨) الطبري (٦٤٥/٢) وابن الاثير (٢١١/٢) .

صلى الله عليه وسلم ، بان العرب كانوا على صلة وثيقة بالروم ومعرفة تامة بأحوالهم ، وكان نشاطا الجانبين معروفين لكل جانب منهما ، فالغساسنة العرب حلفاء الروم المقربون ، والتجارة متبادلة بين الجانبين ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد سافر الى بلاد الشام مرتين في التجارة ، وقد حدثت مناوشات بين المسلمين وحلفاء الروم عدة مرات كان أهمها في سرية مُؤْتَة وفي غزوة تبوك، وكانت مخابرات الروم متغلغلة في المناطق الاسلامية ، ومخابرات المسلمين متغلغلة في بلاد الروم وبخاصة بلاد الشام ، وكانت هناك مغارات نبوية بين المسلمين والروم وحلفائهم لم تثمر نتائج مادية في نشر الاسلام ، بل أثمرت ثمرات معنوية يانعة كما ذكرنا ، وكان هذا الاتصال المستمر تمهيداً للفتح •

٢ ـ فتوح البلاد المحكومة من الروم :

فتح خالد بن الوليد مدينة بُصْرى وهو في طريقه من العراق الى الشام سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤م) ، فكانت بصرى (بُثْرا Bothra) أو (البتراء) أول مدينة فُتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق [٦٩] • وفي هذه السنة انتصر المسلمون على جيش الروم في معركة اليرموك الحاسمة ، وفتحوا دمشق وساحل دمشق وبيسان وطبرية [٧٠] •

وفي سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) فتح المسلمون حمص وبعلبك وقنسرين وحلب وانطاكية وقيسارية وبيسان [٧١] وبيت المقدس [٧٢] ، وبذلك استكمل المسلمون فتح بلاد الشام (سورية ، ولبنان ، والاردن ، وفلسطين) وأصبحت جزءاً من الدولة الاسلامية •

---

(٦٩) ابن الاثير (٢/٤٠٩) •
(٧٠) انظر ابن الاثير (٢/٤٠٠ و ٤٢٧ و ٤٣١) •
(٧١) الطبري (٣/٥٩٩ و ٦٠١ و ٦٠٣ و ٦٠٥) •
(٧٢) الطبري (٣/٦٠٧) وابن الاثير (٢/٤٩٩) •

وفي سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨م) فتح المسلمون الجزيرة [٧٣] كما فتحوا ارمينية في تلك السنة أيضاً وسنة تسع عشرة الهجرية [٧٤] (٦٤٠م) وسنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م) ، وسنة خمس وعشرين الهجرية [٧٥] (٦٤٥م) ، وكان فتحها بالتدريج لوعورة أرضها وبعدها عن قاعدة المسلمين في العراق وسعة مساحتها أيضاً . وفتح المسلمون أذربيجان سنة اثنتين وعشرين الهجرية [٧٦] (٦٤٢م) وصالحها المسلمون نهائياً سنة خمس وعشرين الهجرية [٧٧] (٦٤٥م) ، وبذلك طُوّقت بلاد الروم الاصلية من الجنوب ومن الشرق تطويقاً كاملا .

وفي سنة عشرين الهجرية [٧٨] (٦٤٠م) فتح المسلمون مصر عدا الاسكندرية ، وفي سنة احدى وعشرين الهجرية (٦٤١م) فتح المسلمون الاسكندرية [٧٩] ، وتقدم المسلمون نحو ليبيا ففتحوها سنة اثنتين وعشرين (٦٤٢م) وسنة ثلاث وعشرين الهجرية [٨٠] (٦٤٣م) ، وباختصار لم تحل سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٤٩م) حتى كان أكبر قسم من الولايات البيزنطية في شمالي افريقية شمولا بالفتح الاسلامي .

لقد كانت انتصارات المسلمين تبعث على الدهشة حقا [٨١] .

---

(٧٣) الطبري (٥٣/٤) وابن الاثير (٥٢٢/٢) .
(٧٤) الطبري (٥٣/٤) وابن الاثير (٥٢٣/٢) .
(٧٥) ابن الاثير (٨٣/٣) .
(٧٦) الطبري (١٥٣/٤) .
(٧٧) ابن الاثير (٨٣/٣) .
(٧٨) ابن الاثير (٥٦٤/٢) .
(٧٩) البلاذرى (٣٠٤) .
(٨٠) ابن الاثير (٢٥/٣) .
(٨١) الامبراطورية البيزنطية (٣٦٠) .

٣ ـ فتح ابي عبيدة بن الجراح (٨٢) :

في سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) بعد فتح حلب ، سار أبو عبيدة من حلب الى أنطاكية ، وقد تحصن بها كثير من الناس من قنسرين وغيرها . ولما فارق حلب لقيه جمع العدو ، فهزمهم والجأهم الى أنطاكية وحاصرها من جميع نواحيها . ثم ان أهل أنطاكية صالحوه على الجلاء أو الجزية ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم ، فآمن الذين بقوا في المدينة. ولكن أهل أنطاكية نقضوا، فوجه أبو عبيدة اليهم عياض بن غَنْم[٨٣] وحبيب بن مسلمة [٨٤] ، فأعادا فتحها من جديد .

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين ، فلما فتحت كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبي عبيدة : « أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعلهم بها مرابطة ، ولا تحبس عنهم العطاء » [٨٥] .

٤ ـ فتح خالد بن الوليد :

في سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) ، وجه أبو عبيدة بن الجراح خالداً وهو بـ (مَنْبج) الى مَرْعَش ، ففتحها وأجلى أهلها وأخربها كما أنه فتح حصن الحَدَث [٨٦] .

---

(٨٢)ابو عبيدة بن الجراح : انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح الشام ومصر (٥٤/٨١) .
(٨٣) عياض بن غنم : انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة (٤٢٥ ـ ٤٣٥) .
(٨٤) حبيب بن مسلمة : انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب .
(٨٥) ابن الاثير (٤٩٥/٢) .
(٨٦) تاريخ أبي الفدا (١٦٠/١) .

٥ ـ فتح حبيب بن مسلمة :

أمد عمر بن الخطاب رضى الله عنه عياض بن غنم بحبيب بن مسلمة ، فقدم على عياض بالجزيرة، فقاتل حبيب تحت لواء عياض وفتح شمشاط[٨٧] وملطية عنوةً ، ثم نقض أهلها الصلح ، فلما ولى معاوية الشام وجه اليها حبيب ابن مسلمة أيضاً ، ففتحها عنوة ورتب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها [٨٨] .

وقد جرى فتح شمشاط وملطية سنة سبع عشرة الميلادية (٦٣٨م) .

وارتبكت أمور ارمينية في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان حبيب بن مسلمة يجاهد في تلك المناطق ، وكان على الكوفة الوليد بن عُقبة [٨٩] ، فكتب اليه عثمان : « ان معاوية بن أبي سفيان كتب الي يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة ، وقد رأيت أن يمدهم اخوانهم من أهل الكوفة ، فابعث اليهم رجلا له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه ، والسلام »[٩٠] .

وقام الوليد بن عقبة في الناس وأعلمهم الحال ، وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي ، فانتدب معه ثمانية آلاف ، ومضوا حتى دخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم ، فشنوا الغارات على أرض الروم مع حبيب ، وأصاب الناس ما شاؤوا ، وافتتحوا حصونا كثيرة [٩١] .

---

(٨٧) شمشاط : مدينة في بلاد الروم على شاطىء الفرات ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٩٣) ، وهي غير سميساط .
(٨٨) ابن الاثير (٢/٥٣٥) .
(٨٩) الوليد بن عقبة بن أبي معيط : انظر سيرته في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة (٤٤٩ ـ ٤٦٨) .
(٩٠) ابن الاثير (٣/٨٢) .
(٩١) ابن الاثير (٣/٨٢ ـ ٨٤) .

وبلغ حبيب بن مسلمة أن بطريق (أرميناقس) [٩٢] وهي بلاد (ملطية) و (سيواس) وقونية وأقصرا وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية واسمه الموريان قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم [٩٣] • وأجمع حبيب على تبييت الروم ، فبيتهم وقتل من وقف له ، وانتصر على الروم ، فعاد ادراجه الى مقره في ارمينية ، وقد جرت هذه المعركة سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥ م) •

٦ ـ فتح سلمان بن ربيعة الباهلي :

فتح سيواس وقونية وأقصرا وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية (البسفور) مع حبيب بن مسلمة ، فقد فتحا هذه المنطقة الشاسعة من بلاد الروم متعاونين على أفضل ما يكون التعاون ، وكان سلمان اليد اليمنى لحبيب في فتحه •

٧ ـ فتح محمد بن مروان بن الحكم :

في سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) ، استعمل عبدالملك بن مروان أخاه محمدا على الجزيرة وارمينية ، فغزا منها وأثخن في العدو ، وهزم الروم ، وقتل وسبى وغلب على البلاد •

وفي سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣م) غزا الروم صيفا ، فبلغ أندولية وعاد منها منتصرا •

وفي سنة خمس وسبعين الهجرية (٦٩٤م) ، غزا الروم صيفا ، فخرجت

(٩٢) ارميناقس : هي بلاد ملطية وسيواس واقصرا وقونية وما والاها من البلاد، والى خليج القسطنطينية ، انظر ابن الاثير (٢/٨٤) •
(٩٣) ابن خلدون (٢/١٠٠١) وزاد ابن الاثير (٢/٨٤) : ملطية وسيواس واقصرا ... الخ •

الروم في جمادي الاولى من هذه السنة من قبل مرعش ، فالتقى المسلمون بعمق مرعش بالروم ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فهزمت الروم ، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون •

وفي سنة ست وسبعين الهجرية (٦٩٥م) ، غزا الروم من ناحية ملطية •

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، غزا ارمينية ، فهزمهم ، ولكنهم قتلوا وكيله عليها غدرا بعد أن صالحهم محمد •

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) ، غزا ارمينية ، فصاف فيها وشتى •

وهكذا قضى أكثر سني حكمه للجزيرة وارمينية بالغزو ومحاولة الروم وأهل ارمينية ، فاستعاد فتح ارمينية وشطرا من بلاد الروم •

٨ ـ فتح مسلمة بن عبدالملك :

في سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) ، غزا مسلمة أرض الروم • وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦م) ، غزا الروم فأثخن فيهم بناحية المصيصة ، وفتح حصونا كثيرة منها حصن بولق واخرام وبولس وقمقيم وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم •

وفي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) غزا مسلمة والعباس بن الوليد بن عبدالملك بلاد الروم ، فاصطدم الطرفان فانهزم الروم ، ثم أعادوا الكرة فانهزم المسلمون • ولكن العباس بن الوليد بن عبدالملك ثبت على رأس الساقة ، وقام المسلمون بهجوم مضاد ، فانهزم الروم حتى دخل المسلمون (طوانة) بعد قتال وشتوا فيها • كما فتح مسلمة في هذه السنة حرثومة وثلاثة حصون : حصن قسطنطين وحصن غزالة وحصن الأخرم •

وقد تكرر فتح حصن الاخرم سنة سبع وثمانين وثمان ثمانين الهجرتين، ومن المحتمل أن الروم استعادوه ، فعاد اليه مسلمة وفتحه مرة بعد أخرى •

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، غزا مسلمة والعباس بن الوليد الروم ، ففتحا عمورية وافتتح هرقلة وقمونية •

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩م) ، غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح الحصون الخمسة التي بسورية •

وفي سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠م) ، غزا أرض الروم ، ففتح حصونا ثلاثة ، وجلا أهل سوسنة الى بلاد الروم •

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) ، غزا مسلمة الروم ، فافتتح ماسة وحصن الحديد وغزالة وبرجمة من ناحية ملطية ، وكان مسلمة قد فتح حصن الغزالة سنة ثمان وثمانين الهجرية كما ذكرنا ، والظاهر أن الروم استردوها من المسلمين ، فاستعادها مسلمة ثانية •

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، غزا مسلمة الروم ، فافتتح سندرة ، وهي حصن من حصون الروم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم القسطنطينية ، ومن الغزو مباشرة عاد مسلمة الى الديار المقدسة ، فحج بالناس في هذه السنة •

وفي سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) ، غزا مسلمة الصائفة في بلاد الروم •

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، غزا مسلمة أرض الوضاحية ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح الذي كان من قادة مسلمة المؤوسين • وفيها أيضا غزا برجمة وحصن ابن عوف ، وافتتح أيضا من جديد حصن

الحديد وفتح سرورا ، وشتى بأرض الروم ، وكان مسلمة قد فتح حصن الحديد وبرجمة سنة ثلاث وتسعين الهجرية كما ذكرنا ، والظاهر أن هذين الحصنين انتقضا ، فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية .

وفي هذه السنة بدأ سليمان بن عبدالملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية ، وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) فرض مسلمة الحصار على القسطنطينية ، وبعد قتال عنيف أخفق الحصار وانسحب مسلمة من القسطنطينية سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٧م) ، وتفاصيل الحصار في سيرة مسلمة مفصلة ، ويستطيع أن يتدارسها من يريد في هذا الكتاب : قادة فتح بلاد الروم .

٩ ـ فتح عبدالله بن عبدالملك بن مروان :

في سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، غزا عبدالله بلاد الروم ، ففتح حصن سنان من ناحية المصيصة .

وفي سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) ، غزا عبدالله الروم ، ففتح طُرندة .

وفي سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣م) ، فتح عبدالله المصيصة ، فبناها وبنى حصنها على اساسها القديم ، ووضع بها سكانا من المسلمين ، فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوي البأس والنجدة المعروفين ، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك ، وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن .

ووجه قواته في هذه السنة الى حصن سنان ، ففتحه ، ويبدو أنه فتح هذا الحصن ثانية ، لانه كان قد فتحه سنة اثنتين وثمانين الهجرية كما ذكرنا .

١٠ ـ فتح العباس بن الوليد بن عبدالملك :

في سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) ، فتح العباس بالتعاون مع مسلمة ابن عبدالملك بعض بلاد الروم منها طوانـة •

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، غزا مسلمة بن عبدالملك ومعه العباس أرض الروم ودخلاها جميعا ، ثم تفرقا ، فافتتح العباس (أذرولية) ، ووافق من الروم جمعا فهزمهم ، كما غزا العباس الصائفة من ناحية البُذَندون•

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩م) غزا العباس الروم حتى بلغ الأرزن في رواية ، وحتى بلغ سورية في رواية أخرى ، والثانية أصح ، لأن ذلك يجمعه بقوات مسلمة •

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) ، غزا العباس أرض الروم ، ففتح سمسطية (سبيطلة = سبسطية) ، والظاهر أنها مدينة سميساط • كما فتح في هذه السنة المرزبانين في منطقة طرسوس ، وفتح طولس (طرسوس) •

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، فتح العباس مدينة أنطاكية كما فتح قارطة •

والمعروف أن أنطاكية فتحها أبو عبيدة بن الجراح لأول مرة سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) كما ذكرنا ، ولكن الروم استعادوها لنشوب الاضطرابات الداخلية واضطراب أمور المسلمين ، فأعاد العباس فتحها من جديد •

وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م) ، غزا العباس بلاد الروم ، ففتح طولس (طرسوس) والمرزبانين وهِرَقلة •

وقد تكرر فتح طولس والمرزبانين مرتين : مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية،

ومرة سنة خمس وتسعين الهجرية ، ولعل سبب ذلك هو في اختلاف المؤرخين بالتوقيت ، والاختلاف في هذه الحالة على كل حال طفيف •

وقد يكون سببه ، ان العباس فتحهما مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، فانتقضتا ، فأعاد فتحهما من جديد سنة خمس وتسعين الهجرية •

أما هرقلة ، فقد فتحها مسلمة بن عبدالملك سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، فمن المحتمل أن الروم استعادوها من المسلمين ، فجدد فتحها العباس، وأعادها كرة أخرى الى حوزة المسلمين •

وفي سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١م) ، غزا العباس أرض الروم ، ففتح مدينة (رَسْلَة) أو (دلسة) أو (أواسي) •

١١ ــ فتح عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك :

في سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، غزا عبدالعزيز بلاد الروم ، فبلغ حصن غزالة في هذه الغزوة وفتحها •

ومن المعروف أن هذا الحصن كان قد فتحه مَسْلَمَة بن عبدالملك سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) ، مما يدل على أن الروم استعادوه من المسلمين بعد فتحه ، فأعاده عبدالعزيز الى سيطرة المسلمين مرة أخرى •

١٢ ــ فتح داؤود بن سليمان بن عبدالملك :

في سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، جهز سليمان بن عبدالملك الجيوش لفتح القسطنطينية ، واستعمل ابنه داؤود على الصائفة ، فافتتح حصن المرأة •

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) ، غزا داؤود أرض الروم ، ففتح حصن المرأة ثانية ، كما فتح حصن الأجرب •

وقد تكرر فتح حصن المرأة في هذه السنة ، وسبق ذكره في فتوح سنة سبع وتسعين الهجرية ، مما يدل على أن الروم استعادوه في شتاء سنة سبع وتسعين الهجرية ، لقلة المدافعين عنه من المسلمين على مانرجحه •

وكان فتح هذين الحصنين في هذه السنة ، لتأمين خطوط مواصلات الجيوش الاسلامية الزاحفة لفتح القسطنطينية ، لأنها الشريان الرئيس لتقدم تلك الجيوش نحو هدفها ، وهي التي تصل قواعد المسلمين الأمامية بالقسطنطينية ، وعليها تتحرك الامدادات البشرية والادارية من تلك القواعد الى الجيوش الزاحفة ، وكل قائد لابد له من تأمين خطوط مواصلاته بالربايا في المناطق الجبلية والحصون •

وقد كان داؤود بامرة عمه مسلمة قائدا مرؤسا في ملحمة حصار القسطنطينية ، والظاهر أنه استعاد فتح حصن المرأة وفتح حصن الأجرب ، وهو في طريقه الى القسطنطينية ، اذ كان يومئذ قائدا لأحد الأرتال المتقدمة لفتح عاصمة الروم • وبقى داؤود مع عمه من صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) حتى تم انسحاب مسلمة عن حصار القسطنطينية بعد وفاة سليمان ابن عبدالملك سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٧م) ، بعد أن بقى المسلمون يحاصرون القسطنطينية ثلاثين شهرا •

١٢ ــ فتح معاوية بن هشام بن عبدالملك :

في سنة تسع ومئة الهجرية (٧٢٧م) ، غزا معاوية أرض الروم ، ففتح حصنا يقال له : حصن طيبة ، وأصيب معه قوم من أهل أنطاكية بخسائر في الأرواح •

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨م) ، غزا معاوية أرض الروم ، ففتح حصنين كبيرين من حصونهم : حصن صِمَلَّة والبوة • وصملة هذه هي

صمالو التي تقع قرب المصيصة وطرسوس •

وفي سنة احدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م) ، غزا معاوية أرض الروم على الصائفة اليسرى ، وغزا أخوه سعيد بن هشام بن عبدالملك أرض الروم على الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية ، فوغل معاوية في بلاد الروم ، وانصرف ولم يلق كيدا •

وفي سنة اثنتى عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م) ، غزا معاوية بلاد الروم ، فافتتح خَرَشَنَة من ناحية ملطية وحرق فرندية من ناحية ملطية أيضا •

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١م) ، غزا معاوية بلاد الروم ، فرابط في ناحية مرعش ثم رجع •

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢م) ، غزا معاوية أرض الروم على الصائفة اليسرى ، وغزا أخوه سليمان بن هشام أرض الروم على الصائفة اليمنى مما يلي الجزيرة ، فأصاب معاوية ربض أقرن ، وبلغ سليمان قيسارية • والظاهر أن أقرن تقع في ناحية ملطية ، استنادا الى اتجاه الصوائف اليسرى وسير الحوادث •

وفي سنة خمس عشرة الهجرية (٧٣٣م) ، غزا معاوية الروم على الصائفة حتى أتى على أفلاغونيا ، وجرت هذه الغزوة في شهر رمضان ، وافتتح حصونا•

وفي سنة ست عشرة ومئة الهجرية (٧٣٤م) ، غزا معاوية بلاد الروم على الصائفة ، كما غزا سنة سبع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٥م) ، فبلغ في غزوته سيرة وبلغت سراياه سردة •

وفي سنة ثماني عشرة ومئة الهجرية (٧٣٦م) ، غزا معاوية وأخوه سليمان أرض الروم •

١٤ ــ فتح مروان بن محمد بن مروان :

في سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤م) في خلافة هشام بن عبدالملك بن مروان ، تولى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أول قيادة عسكرية له ، وكان عمره يومئذ ثلاثين سنة •

فقد تولى الصائفة اليمنى ، فافتتح قونية من أرض الروم وكمخ التي تعد من أرض الجزيرة •

وكان مروان مع مسلمة بن عبدالملك من سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥م) حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣١م) في جهاده الذي امتد من الجزيرة الى بلاد الروم وأذربيجان وارمينية ، فعزل هشام بن عبدالملك أخاه مسلمة ، وولى مروان بن محمد على الجزيرة وأذربيجان وارمينية ، فكان نشاط مروان في الفتوح منصبا على ارمينية ، وبقي في قيادته مجاهدا حتى سنة احدى وعشرين ومئة ، ونشاطه في هذا الميدان في سجل فتح ارمينية نشاط متميز مرموق •

١٥ ــ فتح محمد الفاتح :

فتح محمد مدينة القسطنطينية عاصمة الروم ، وكانت خطة الفتح وتنفيذها وتوقيت عمليات الفتح ونتائج الفتح مهمة جدا ولاتزال وستبقى كذلك ، ولايمكن اختصار تلك الأعمال المجيدة بسطور أو كلمات ، فلابد من الرجوع اليها في كتاب : قادة فتح الروم ، لاستيعاب تفاصيلها كما ينبغي في سيرة : محمد الفاتح ، الذي كان آخر قادة فتح بلاد الروم تسلسلا ، وأهمهم انجازا وفتحا ، وحسبه أن يقال عنه : انه فاتح القسطنطينية ، وكفاه بذلك فخرا وذكرا •

ولم يقتصر فتح محمد الفاتح على القسطنطينية على أهميته ، بل شمل فتوحات كثيرة في آسيا الصغرى ، وفي أوروبا ، مما تجد تفاصيله في فتوح هذا القائد العظيم الذي أصبحت فتوحاته معروفة ومقدرة ليس على النطاق الاسلامي وحده ، بل على النطاق العالمي أيضا .

عبرة الفتح

استهان الروم بالعرب بعامة وعرب الجزيرة العربية بخاصة ، قبل الاسلام، وبعد الاسلام . واذا كان هناك ما يسوغ لهم هذه الاستهانة بالعرب قبل الاسلام ، لتفرّقهم وتناحرهم وضعف قوتهم وانصرافهم الى المنافع الشخصية المادية والمعنوية بحدود المكاسب الفردية لغاية نطاق العشيرة أو القبيلة ، دون أن يكون للمصلحة العربية العامة أهمية تذكر في ميزان العربي قبل الاسلام. كما أن العرب كانوا يؤمنون بعقائد شتى ، وكانوا في سوادهم الأعظم مشركين ، فكانت تلك العقائد المتخلفة تفرق ولا توحد ، وتهدم ولاتبنى ، وتؤخر ولاتقدم ، وتثير بين معتنقيها العداوة والبغضاء والحقد والتناحر ، ولعل : « أيام العرب في الجاهلية »[٩٤] في حرب البسوس وداحس والغبراء وغيرهما ، تحكى قصة الاقتتال المستمر بين الأشقاء العرب لأسباب تافهة ، فكان بأسهم بينهم شديدا ، حتى قال قائلهم :

(٩٤) انظر كتاب : ايام العرب في الجاهلية ــ محمد احمد جاد المولى بالاشتراك ــ القاهرة ــ ١٩٤٢ ، فقد سجل التاريخ للعرب (٨١) اقتتالا في مدة قصيرة ، وما لم يسجله اكثر عددا . والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفة والغضب والأنفة ، انظر فجر الاسلام (٨٦/١). والجاهلية : زمان الفترة بين رسولين . والجاهلية: ما كان عليه العرب من الجهالة والضلالة قبل الاسلام ، انظر معجمات اللغة .

ومَن تكن الحضارة أعجبتهُ
فأي رجال بادية ترانا

ومَن ربط الجحاش فأن فينا
قنا سُلبا [٩٥] وأفراسا حِسانا

وكُنَّ اذا أغَرْنَ على قبيل
فأعوزهُنَّ نهبٌ حيث كانا[٩٦]

أغَرْنَ على الضِّباب على حلالٍ
وضبّةَ انّه مَن حان حانا[٩٧]

وأحيانا على بَكرٍ أخينا
اذا مالم نجد الا أخانا[٩٨]

هؤلاء هم عرب الجزيرة العربية ، أنفسهم عليهم لا على أعدائهم ، فهي أشد ضررا عليهم لانها أعدى أعدائهم ، فلا وزن لهم في موازين القوى المتصارعة .

أما عرب العراق ، فحلفاء الفرس ، وهم المناذرة ، وأما عرب بلاد الشام ، فحلفاء الروم ، وهم الغساسنة ، وكثيرا ما نشبت الحرب بين الغساسنة والمناذرة لا لمصلحة العرب ، بل لمصلحة الفرس أو الروم ، أما المصلحة العربية فغائبة

---

(٩٥) قنا : جمع قناة ، والقناة : الرمح الاجوف . وسلبا : اي طوال .
(٩٦) القبيل : الجمع من الناس .
(٩٧) الضباب : اسم قبيلة . والحلال : المجاور ، يقال : حي حلال : اي مجاور مقيم بالقرب منه . يقول : اغرن على الحي المجاور لحيهم من قبيلتي ضباب وضبة . وقوله : من حان حانا : اي من جاء أجله فهو لابد هالك .
(٩٨) الشعر للقطامي الشاعر ، وهو شاعر جاهلي مشهور .

عن الميدان • أما عرب الجزيرة ، فهم تارة مع الفرس ، وتارة مع الروم ، ولــم تقم لهم دولة بعد دولة الحضر التي قضى عليها سابور الاول (٢٤١م ــ ٢٧٢م)، ومن يومها كانوا مع القوي الذي استولى على بلادهم ، على الضعيف الذي غادر بلادهم ، وكانوا يكدون ليدفعوا الضرائب الفادحة للحكام ، ويعــانون الاضطهاد الديني حتى من أبناء دينهم الروم ، لاختلاف المذاهب وما يجــره اختلافها من ويلات •

وعرب الهلال الخصيب قبل الاسلام : العراق ، وبلاد الشام ، والجزيرة ، لا وزن لهم في موازين القوى المتصــارعة ، لأنهم يعملون لمصــلحة الفُرس والروم لا لمصلحتهم ، فطاقاتهم مسخرة للأجنبي لا للعرب •

وجاء الاسلام ، فوحد عقائد العرب المتناقضة في عقيدة واحــدة هي : الاسلام ، بعد أن ألغى تلك العقائد الفاسدة ، ووحد صفوفهم وألف بين قلوبهم وغرس فيهم روح الضبط والطاعة والنظام ، وطهر نفوسهم ، ونقى أرواحهم ، وخلق فيهم انسجاماً مادياً ومعنوياً ، وعلمهم التضحية من أجل المبادىء لا من أجل الأهواء ومن أجل المصلحة العامة للمسلمين لا من أجل المصلحة الشخصية للأفراد أو الجماعات ، فأصبحت لذلك كله وبذلك كله قوتهم المبعثرة وجهودهم المضاعة ، تعمل بنظام واحد ، وطاعة عالية ، بقيادة واحدة ، لهدف واحــد ، وبذلك أصبح العرب قوة منظمة هائلة ، وجدت لها متنفسـاً في توحيد الجزيرة العربية أولا ، وفي الفتح الاسلامي ثانيا ، وأصبح العرب بعد الاسلام ، غــير العرب قبل الاسلام قوة واقتداراً ومثلاً عليا •

ولكن الروم استهانوا بالعرب بعد الاسلام ، كما اســتهانوا بهم قبــل الاسلام ، ولم يكتشفوا أثر الاسلام في العرب بالرغم من النذر المباشرة التي كشفها العرب المسلمون للروم وحلفائهم من الغساسنة والقبائل العربية الاخرى

على عهد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، فكانت تلك الاستهانة التي لا مسوغ لها هي الخطأ السوقي العظيم الذي وقع فيه الروم والذي لم يستطيعوا تلافيه ولا اصلاحه أبدا ، وأدى فيما أدى اليه الى فتح المسلمين لممتلكات الروم خارج بلادهم الأصلية ، وفتح جزء من بلادهم أيضا .

لقد كانت السرايا التي بعثها النبي صلى الله عليه وسلم للتعرض بحلفاء الروم من القبائل العربية على تخوم بلاد الشام الجنوبية ، انذاراً مباشراً للروم بصحوة العرب بعد الاسلام ، تلك السرايا التي كانت قبل سرية مؤتة مباشرة كما هو معروف .

والى جانب تبليغ الدعوة الاسلامية الى قادة العالم المعروفين في حينه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان قائداً لا يغض الطرف عن أي مظهر عدواني يحط من شأن دعوته أويعمل على النيل منها ، فلم يسكت ازاء استشهاد رسوله الحارث بن عُمَيْر الازدي[99] الذي بعثه الى ملك الغساسنة في بصرى ، فأرسل في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩م) أحد قادته المقربين اليه ، وهو زيد بن حارثة الكلبي ، على رأس سرية تعدادها ثلاثة آلاف مجاهد الى الحدود الشمالية الغربية من بلاد العرب . وهناك عند مؤتة الواقعة على حدود البلقاء الى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت ، التقى المسلمون بقوات الروم .

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها سرية مؤتة ، الا أن نتائجها وآثارها كانت

(٩٩) الحارث بن عمير الازدي : انظر سيرته في الاستيعاب (١/٢٩٧) واسد الغابة (١/٣٤١) والاصابة (١/٢٩٩) .

بعيدة المدى ، فبينما رأى الروم في تلك السرية غارة من الغارات التي اعتاد البدو على شنها للنهب والسلب ، كانت سرية زيد هذه في الحقيقة معركة من نوع جديد لم تقدر دولة الروم أهميتها ، فهي حرب منظمة كانت لهـا مهمة خاصة ، جعلت العرب المسلمين يتطلعون جدياً لفتح بلاد الشام .

وفي السنة التالية ، أي في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م) ، قاد النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة تبوك ، فأظهر قوة المسلمين للروم وحلفائهم بخاصة ، وللمشركين وغير المسلمين من أهل الكتاب بعامة ، ثم عاد أدراجه الى المدينة المنورة .

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢م) ، أعد النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً بقيادة أسامة بن زيد[١٠٠] لمهاجمة الروم، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم التحق بالرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول من تلك السنة (كانون أول ــ ديسمبر ــ ٦٣٢م) قبل حركة جيش أسامة الى هدفه ، فترك لخلفائه خطة واضحة المعالم ، وولى وجوههم شطر هدف عينه لهم... وهكذا وقف الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بثاقب نظرة على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوىء دعوتـه انما موطنها أرض الشـام حيث الـروم وحلفاؤهم الغساسنة ، وقد أثبتت حوادث الفتح الاسلامي في أرض الروم صدق هذه الاشارة ، فكان الروم أشد المحاربين عنادا .

ولكن الروم بقدر اهتمـام العرب المسلمين بهم ، واعداد العـدة لهم ، واستكمال الاستحضارات لقتالهم ، كانوا لايزالون يتصورون أنه لا فرق بين

(١٠٠) انظر ترجمته المفصلة في كتاب : قادة فتح الشام ومصر (٢٣ ــ ٥١) .

العرب قبل الاسلام وبين العرب بعد الاسلام ، وأن الحرب التي يشنها العرب المسلمون كالحرب التي كان يشنها العرب قبل الاسلام ، فالحرب العربية غارات تلتهب بسرعة وتخمد بسرعة دون أن تترك أثراً ولا تأثيرا ، فكانت استهانة الروم بالعرب بقدر اهتمام العرب بالروم والاستعداد الكامل المفصل لحربهم •

ويبدو أن من أسباب استهانة الروم بالعرب ، خروج الروم من الحرب البيزنطية الفارسية (٦١٠م ــ ٦٢٨م) منتصرين على الفرس ، وبذلك أصبحوا أقوى دول العالم في حينه ، فَمَنْ يكون العرب الضعفاء الى جانب الروم الأقوياء ! كما أن النصر ــ وبخاصة في حرب طويلة الأمد ــ على دولة قوية كالامبراطورية الساسانية ، يؤدي الى الغرور الذي من نتائجه الاستهانة بالأعداء ، ويؤدي الى الاسترخاء للتمتع بثمرات النصر اليانعة •

والحق أن العرب غير المسلمين ، استهولوا قتال الروم ، فقال قائلهم وهم يشيرون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق الى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : « أتَحْسَبون جِلادَ بني الأصفر (أي الروم) كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال » ، ارجافاً وترهيباً للمؤمنين (١٠١) ، فما كان هؤلاء العرب الذين لم يسلموا يصدّقون بأن العرب المسلمين قادرون على حرب الروم ، ولكن العرب المسلمين كانوا واثقين بنصر الله ، فاذا كان العرب أنفسهم يستهينون ببعضهم الى هذا الحد ، فلا لوم على الروم في استهانتهم بالعرب أيضا •

والدرس الاول الذي نتعلمه ، هو أن الاستهانة بالعدو ، تؤدى الى أوخم

(١٠١) سيرة ابن هشام (٤/١٨٠) •

العواقب ، وأن القوى مهما يبلغ من القوة ، لا عذر له في الاستهانة بالضعيف مهما يبلغ من الضعف ، والحكمة كل الحكمة في المثل العربي القديم : « اذا كان عدوك نملة ، فلا تنم له » •

وكان الأجدر بالروم وحلفائهم ألا يستهينوا بالعرب المسلمين وأن يتدبروا أثر الاسلام في العرب بجدية وحزم ، ويعدوا للعرب المسلمين ويستعدوا لهم من بعد سرية حسمى بقيادة زيد بن حارثة الكلبي التي كانت في شهر جمادى الآخرة من سنة ست الهجرية ، حيث انكشفت نيات العرب المسلمين في تصديهم للروم وحلفائهم العرب غير المسلمين ، أو بعد السفارة النبوية الى ملك الغساسنة وامبراطور الروم هرقل التي كانت في أواخر السنة السادسة الهجرية وأوائل السنة السابعة ، لأن تعاليم الاسلام في الجهاد : الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال ، قد انكشفت أيضاً • الا أن الروم لم يعدوا ويستعدوا للمسلمين من العرب الا في سنة ثلاث عشرة الهجرية قبيل معركة اليرموك الخاسمة ، فخسروا خمس سنوات في سبات وغفلة ، وكان العرب المسلمون سنة ثلاث عشرة الهجرية غير العرب المسلمين سنة ست الهجرية ، اذ اصبحوا أكثر عدداً وعدَداً او أقوى ساعداً ومدداً ، وأكثر خبرة ورشداً ، وكان القطار بعد يقظة الروم من اغفاءتهم الطويلة قد فاتهم الى غير رجعة •

ومن تجارب الأمم المفيدة التي استخلصتها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً ، أن الاستهانة بالعدو تؤدي الى الاندحار في الحرب ، وان في تقدير الموقف للقضايا المصيرية ــ ومنها الحرب ــ يجب أن يضع أسوأ الاحتمالات في الحسبان ، فاذا كان هناك خطر يتهدد الأمة في مصيرها بمعدل واحد بالمئة ، فلابد من اعتبار ذلك الخطر مئة بالمئة ، والاعداد والاستعداد بالنسبة لمئة بالمئة

لدرء هذا الخطر ، اذ لا ضرر من المبالغة بالحذر واليقظة ، وانما الضرر بالغفلة والاسترخاء .

والدرس الثاني الذي نتعلمه ، هو أن الاختلافات المذهبية في الدين الواحد ، قد تجر الى عواقب وخيمة تضر بحاضر الأمة ومستقبلها وتفرق وحدة البلاد .

لقد كان من الطبيعي جداً أن يودي دخول الفرس الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة ، الى اضطهاد أبناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالقسطنطينية وتمسكهم بعقائدها ، كما كان طبيعياً أن يؤدي ذلك الى تنشيط اليعاقبة وكل من قال بالطبيعة الواحدة . والواقع أنه لما عاد الروم الى هذه الأقطار ، وجدوا أن جميع بطاركتها هم من أتباع الطبيعة الواحدة ، فعادوا الى معالجة الانشقاق في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف (١٠٢) ، وكان الامبراطور وأهل دولته يقولون : ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، أما رعيته في مصر والشام والجزيرة ، فكان أكثرهم يقول بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة ، ولتوحيد الكلمة وجمع الصفوف وافق هرقل بالقول : بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ، لغرض التوفيق بين المسيحيين من رعايا الروم . ونشر الامبراطور منشوراً بهذا المعتقد ، فقبل به أكثر الأساقفة الشرقيين الا بطريرك القدس وغيره ، فشق ذلك على الامبراطور، وعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم. وأصبح الانقسام مزدوجاً : الامبراطور ومن والاه في ناحية ، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل حوران وسائر أهل سورية ومصر في ناحية ، والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة في ناحية ثالثة ، فضلا عن طوائف أخرى منهم الخياليون

(١٠٢) الروم (١/٢٣٠ ـ ٢٣١) .

الذين يقولون بأن المسيح لم يُصلب حقيقة ، وانما صلب رجل آخر مكانه ، ومنهم القائلون بعدم الخضوع للرؤساء ، ثم ان اليعاقبة أيضاً كانوا أقساماً مما يطول شرحه •

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة ، لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى آل الأمر أحياناً الى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم الى حوزة الفُرس ، كما حصل بالارمن ، فانـه لمـا حرم المجمع القسطنطيني القول بالطبيعة الواحدة ، جعل الامبراطور يشدد النكير على متبعيها والأرمن منهم ، فأفضت بهم الحال الى تسليم بلادهم الى الفُرس • وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له في فتحها [١٠٣] ، لأنهم كانوا على الروم مذهبياً ، كما لم يقاتل أهل الجزيرة دفاعاً عن بلادهم كما ينبغي ، ولم يسندوا الروم بقوة وأمانة كما يجب ، « فكانت الجزيرة أسهل البلاد فتحاً » [١٠٤] ، لأنهم كانوا على الروم مذهبياً أيضا •

ولكن التناقض المذهبي كان سبباً واحداً من أسباب فتح أرض الشـام ومصر والجزيرة ، فهناك أسباب كثيرة لهذا الفتح ، لعل أهمها : الحرب العادلة التي خاضها المسلمون حينذاك ، فلا ظلم ولا عدوان ولا انتهاك للاعراض ، ولا انتهاب للأموال ، بعكس الروم الذين كانـوا يظلمون ويعتـدون وينتهكون الأعراض وينتهبون الأموال • ومن أسبابها العدل الذي أشاعه المسلمون في البلاد المفتوحة ، والتسامح الذي لمـه أهل تلك البلاد ، والمثل العليا التي كان المسلمون نماذج حية لها تمشي على الأرض : « وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي ، وقد ترك العربُ الناسَ أحراراً في أمور دينهم ، وأظـل

(١٠٣) التمدن الاسلامي (٤٢/١) ــ جرجي زيدان ــ ط ٢ ــ القاهرة ــ ١٩١٤ •
(١٠٤) الطبري (٥٤/٤) وابن الاثير (٥٣٢/٢) •

العربَ أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم ، فنال هؤلاء مالم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة » [١٠٥] ، « من ذلك أن عمر بن الخطاب لما دخل القدس ، أبدى من التسامح نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعرفهم وعاداتهم ، ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم » [١٠٦] ، « وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله في فتوح الأمم الأخرى ، ذلك أن العرب انشأوا بسرعة فائقة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا بحسن سياستهم من اقناع أمم كثيرة على اعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود والفرس الذين رضوا أيضاً بمعتقدات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم » [١٠٧] . « والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب » [١٠٨] ، وقد ذكرت شهادة غير عربي ولا مسلم ، لأن فضل العرب المسلمين في هذا المجال كان واضحاً معروفاً لا يخفى على صديق وغير صديق فلا يمكن اخفاء الشمس في وضح النهار .

وقد ذاع خبر العدل والتسامح والمُثُل الاسلامية العُليا التي يتحلى بها المسلمون في حربهم وسلامهم ، فسهلت تلك الأخبار الطيبة على المسلمين مهمة الفتح، وجعلت كفتهم ترجح على كفة الروم في ميزان الحق والعدل والانصاف.

لقد انتصر العرب المسلمون الأولون بسمعتهم الحسنة في العدل

(١٠٥) حضارة العرب ــ كوستاف لوبون ــ ترجمة عادل زعيتر ــ القاهرة ــ ١٩٥٦ ــ ص (١٦٩) .
(١٠٦) حضارة العرب (١٦٨) .
(١٠٧) حضارة العرب (١٥٣) .
(١٠٨) حضارة العرب (٢٢٥ ــ ٢٣٥) ، وانظر فصل : الفتوح الاسلامية ومعاملة العرب للأمم المغلوبة من كتاب : اصالة الحضارة العربية (٢٤٠ ــ ٢٤٣) ــ الدكتور ناجي معروف ــ بيروت ــ ١٣٩٥هـ ــ ط ٣ .

والتسامح ومكارم الأخلاق على الروم والفرس وحلفائهم ، أكثر من انتصارهم بالقوة الضاربة ، والمثل العليا تبقى ، والقوة الضاربة لا تبقى .

واذا كنا قد تعلمنا من الروم درساً حيوياً يبرز محاذير التناحر المذهبي وأثرها المدمر في حاضر الأمة ومستقبلها ، فعلينا أن نتعلم من أجدادنا العرب المسلمين في الصدر الأول من أيام الفتح الاسلامي ، أنهم انتصروا بالجهاد الذي هو الحرب العادلة لتكون كلمة الله هي العليا ، ان (الفتح) سيف وكتاب ، والسيف يتبدد أثره ، والكتاب لا يتبدد أثره أبدا ، والفرق بين الفتح وبين الاستيلاء أو السيطرة ، هو أن الفتح قتال ومبادىء ، وغيره قتال بدون مبادىء ، وكل فتح تحرير ، ولكن ليس كل تحرير فتحاً ، فقد يكون التحرير بالقوة وحدها دون مبادىء ، وحين عاد النبي صلى الله عليه وسلم الى مكة المكرمة وهي بلده الأمين منتصراً ، سميت عودته : فتح مكة ، وسماها الله في كتابه العزيز فتحاً ، فقال : (انا فتحنا لك فتحا مبينا)[109] ، وفي القرآن الكريم سورة الفتح ، وقد وردت مادة (فَتَحَ) في الكتاب العزيز بنحو ثمان وثلاثين آية ، منها سبع عشرة آية في معنى (الفتح)[110] الذي هو الجهاد لاعلاء كلمة الله بالاقناع لا بالاكراه ، وبالحكمة والموعظة الحسنة لا بالتعسف والعنف ، اذ (لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي)[111] .

وقد كنت أعلم أن المسلمين تركوا الجهاد فذلوا ، وما كنت أعلم أنهم يريدون ترك حتى لفظة الجهاد وما يتبعها من كلمات ذات معانٍ اسلامية خاصة كالفتح، بحجة أن الجهاد يحمل معنى الاعتداء وأن الفتح يحمل معنى الاستيلاء،

---

(١٠٩) الآية الكريمة في سورة الفتح (٤٨ : ١) .
(١١٠) انظر التفاصيل في : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٥١٠ — ٥١١) — القاهرة — ١٣٧٨ هـ .
(١١١) الآية الكريمة في سورة البقرة (٢/٢٥٦) .

والجهاد والفتح لا يحملان مثل هذين المعنيين الا في فكر أعداء الاسلام وحدهم، وما معنى التحرير الا نقطة في بحر معاني الفتح، فلا ينبغي أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير •

ولما ترك المسلمون فرض الجهاد ، ضعفوا وذلوا واستهانت بهم الأمم ، وتفرقت كلمتهم وتشتت شملهم ، وأخذوا يقتتلون فيما بينهم ، ونسوا أعداءهم الحقيقيين وشغلوا باخوانهم وأشقائهم ، حتى هانوا على أعدائهم ، وخسروا ما فتحوه بالتدريج •

لقد استعاد نقفور امبراطور الروم (نيقيفوريوس فوقاس ٩٦٣م ـ ٩٦٩م) المصيصة وطرسوس من المسلمين سنة أربع وخمسين وثلاثمائة الهجرية [١١٢] (٩٦٥م) ، فذكر ياقوت الحموي في كتابه : (معجم البلدان) وصفاً لاحتلال نقفور لمدينة طرسوس فقال : « •••• فان نقفور ملك الروم استولى على الثغور ، فاستولى على المصيصة ثم رحل عنها ونزل على طرسوس ، وكان بها من قِبَل سيف الدولة رجل يقال له : ابن الزيات ورشيق النسيمي مولاه ، فسلما اليه المدينة على الأمان والصلح على أن مَنْ خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يعترض من عين وورِق أو خرثي [١١٣] ، ومالم يطق حمله فهو لهم مع الدور والضياع • واشترط تخريب الجامع والمساجد ، وأنه من أراد المقام في البلد على الذمة وأداء الجزية فعل ، وان تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته ••••••• وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام وتفرقوا فيها ، وملك نقفور البلد ، فأحرق المصاحف وخرب المساجد ، وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جُمع من أيام بني أُمَيَّة الى هذه

(١١٢) ابن الأثير (٨/٥٦٠) .
(١١٣) الخرثي : آثاث البيت .

الغاية .... ودخل الروم الى طرسوس ، فأخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ، ثم يتوكل ببابها ، ولا يطلق لصاحبها الا حمل الخِف [114] ، فان تجاوز منعه ، حتى اذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على ما فيها .... هذا والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض (يريد فرض الجهاد) ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده »[115] ، وهكذا أصبح الطالب مطلوباً والسيد عبداً والعزيز ذليلا ، لأن المسلمين تركوا دينهم الذي قادهم الى النصر، والى الوحدة والتوحيد ، وتخلوا عن فريضة الجهاد ، فتداعت عليهم الأمم .

أما في القرن الرابع عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) ، فقد خسر المسلمون ما فتحوه وأصبحت بلادهم مستعمرات للأجنبي ، واقتطع الصهاينة الأرض المقدسة من البلاد العربية .

واستمر العد التنازلي ، حتى كانت سنة اثنتين وأربعمائة وألف الهجرية (١٩٨٢ م) سنة مذابح مخيمات صبرا وشاتيلا في بيروت ومذابح الأشقاء اللبنانيين من المسلمين بأيدي الصهاينة وعملائهم .

أما في سنة ثلاث وأربعمائة وألف الهجرية (١٩٨٣م) ، فقد كانت سنة اقتتال الأشقاء الفلسطينيين مع بعضهم في طرابلس اللبنانية ، مما أثلج قلوب الصهاينة وأعداء العرب والمسلمين .

---

(١١٤) الخف : كل شيء خف محمله .
(١١٥) معجم البلدان (٦/٣٦ ــ ٤٠) .

وحين قرأت ما كتبه ياقوت في معجم البلدان ، قلت لنفسي : « ما أشبه الليلة بالبارحة » •

ان عبرة فتح بلاد الروم يمكن اجمالها في أربعة دروس رئيسة : درسان من الروم ، ودرسان من العرب •

الدرس الأول من الروم ، هو أن الاستهانة بالعدو تقود الى الهزيمة ، ولا عذر بضعف العدو وقلته ، فالفئة القليلة المنظمة المستعدة ، تتغلب على الفئة الكبيرة غير المنظمة وغير المستعدة • والدرس الثاني من الروم هو أن التناحر المذهبي ، يقود الى الاندحار ، لأنه يفتت الأمة ويمحق التعاون فيما بينها في السلم والحرب •

والدرس الأول من المسلمين ، هو العودة الى الجهاد الاسلامي الذي هو الحرب العادلة بما فيها من مُثُل عليا ووحدة واتحاد ، فما ترك الجهاد قوم الا ذلوا وتفرقوا • والدرس الثاني من المسلمين ، هو اتحادهم ، فما اتحدوا الا انتصروا ، وما تفرقوا الا انخذلوا ، وفوائد الوحدة لا تحتاج الى بيان •

كما نتعلم من هذه الدراسة درسين حيوين آخرين من المسلمين والروم : الأول هو أن الهجوم أنجح وسائل الدفاع ، وهو من الدروس السوقية التي نتعلمها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً بعامة ومن حرب المسلمين على الروم وحرب الروم على المسلمين بخاصة •

فقد شحن المسلمون الثغور بالمجاهدين الذين يرابطون في تلك الثغور للدفاع عنها وصد هجوم الروم عليها شتاءاً وصيفاً • وجعلوا من هذه الثغور

قواعد متقدمة للمسلمين ، ينطلقون منها في الصوائف للهجوم على مدن الروم القريبة أو البعيدة ، بقصد اظهار قوة المسلمين ومنعتهم ويقظتهم ، وتفريق حشود الروم وضربها في عقردارها في حالة تحشدها للتعرض بالبلاد الاسلامية قبل أن تتعرض بالمسلمين ، وبذلك ينقلون ساحة المعارك من بلاد المسلمين الى بلاد الروم ، ويحملون الروم نتائج تلكِ المعارك مادياً ومعنويا •

وكانت صوائف المسلمين تغزو بلاد الروم سنوياً ، مادام المسلمون أقوياء متحدين ، يتقبلون الجهاد ويتقبلون عليه بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والعناء •

أما في حالة ضعف المسلمين وتفرقهم ، فان الروم يغزونهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وكان الأسلوب التعرضي أنجح وسائل الدفاع بالنسبة للمسلمين والروم أيضا •

وقد كانت الثغور آمنة مطمئنة ، حين كانت عامرة بالمجاهدين والمرابطين للدفاع المحلي ، وبالصوائف التي تعبر الحدود سنوياً للدفاع السوقي عن الثغور وعن بلاد المسلمين • ثم أصبحت تلك الثغور غير آمنة ولا مطمئنة بعد أن خلت من المدافعين عنها ، وتقاعس المسلمون عن غزواتهم الصيفية ، فأصبحت مكشوفة للروم ، واستطاعوا احتلال قسم منها ، وفعلوا بأهلها الأفاعيل •

أما الدرس الحيوي الثاني ، فهو أن الروم ، لم يكونوا ضعفاء في أيام الفتح الاسلامي ، ولم يكن جيشهم ضعيفاً ولا قيادتهم ضعيفة ، كما يدعى الأجانب من المؤرخين القدامى والمحدثين •

فقد كان الروم على جانب عظيم من الحضارة كما رأينا ، وكان جيشهم أقوى جيش في العالم ، وحسبه أنه دحر الجيش الساساني وانتصر عليه، حتى هدد عاصمة ملكه ، واستعاد البلاد التي احتلها الفُرس ، وأصبح القوة العالمية التي لا تنافس في حينه . كما كان هرقل امبراطور الروم المنتصر من ألمع قادة الروم وأكثرهم كفاية واقتدارا ، وقد أحرز بانتصاراته الباهرة على الفُرس سمعة في القيادة لا مثيل لها في أباطرة الروم . وهدف الذين يدعون أن الروم كانوا ضعفاء أيام الفتح الاسلامي واضح مفهوم ، فهم يريدون أن يسوغوا هزيمة الروم من ناحية ويهوّنوا من انتصار المسلمين من ناحية أخرى ، ولكن هدف الذين يرددون هذا الادعاء المتهافت غير واضح ولا مفهوم ، الا أن يكون تقليداً لكل أجنبي أو جهلا بالواقع والتاريخ ، أو عمالةً لأعداء العرب والمسلمين ، أو بكل تلك الأسباب مجتمعة كأنها ظلمات بعضها فوق بعض .

لقد انتصر الفاتحون لأنهم كانوا متفوقين على الروم بمعنوياتهم العالية التي غرسها الدين الحنيف في المسلمين الأولين ، وما أصدق خالد بن الوليد في قولته حين سمع رجلا يقول : «ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » ، فأجابه فوراً : « بل ما أقل الروم ! وأكثر المسلمين !! انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان » .

وقد كان المسلمون يومئذ كثيرين بانتصاراتهم الباهرة ، وما أعظمها وأبقاها من انتصارات .

مجمـل الفتـوح

التسلسل	اسم المدينة	اسم القائد	الملحوظات
١	انطاكية	أبو عبيدة بن الجراح	
٢	مرعش	خالد بن الوليد	
١	شمشاط		
٢	ملطيـة	حبيب بن مسلمة	من سيواس الى خليج القسطنطينية بالتعاون مع سلمان بن ربيعة
٣	سيواس وقونية		
٤	اقصرا حتى خليج القسطنطينية		
١	سيواس		
٢	قونيـة	سلمان بن ربيعة	بالتعاون مع حبيب بن مسلمة
٣	اقصرا حتى خليج القسطنطينية		
١	مرعش	محمد بن مروان بن الحكم	استعادة فتح مناطق هاتين المدينتين
٢	ملطيـة		
١	حصن بولق		
٢	حصن الأخرم		
٣	حصن بولس		
٤	طوانـة		
٥	حرثومة	مسلمة بن عبدالملك بن مروان	
٦	حصن قسطنطين		
٧	حصن غزالـة		
٨	عمورية		
٩	هرقـلة		

التسلسل	اسم المدينة	اسم القائد
١٠	قمونيـــة	
١١	الحصون الخمسة بسورية	
١٢	ســـوسنة	
١٣	ماســة	
١٤	حصن الحديد	
١٥	برجمـــة	
١٦	سندرة	
١٧	حصن الوضاح	
١٨	حصن ابن عوف	
١٩	سرورا	
٢٠	حصن الصقالبة	
٢١	حصار القسطنطينية	
١	حصن سنان	
١	طرنـــدة	عبدالله بن عبدالملك بن مروان بن الحكم
٢	الصيصـــة	
١	طوانـــة	
٢	الدرولية	
٣	سميساط	
٤	المرزبـــانين	العباس بن الوليد بن عبدالملك بن مروان فتح طوانة مع مسلمة بن عبدالملك
٥	طرسوس (طولس)	
٦	قـــارطة	
٧	رسلة = دلسة = أواسى	

التسلسل	اسم المدينة	اسم القائد	
١	حصن غزالة	عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك بن مروان	فتحه مسلمة واعاد عبدالعزيز فتحه
١	حصن المراة	داؤود بن سليمان بن عبدالملك بن مروان	بأمرة مسلمة بن عبدالملك
٢	حصن الاجرب		
٣	حصن القسطنطينية		
١	حصن طيبة		
٢	حصن صملة = صمالو		
٣	حصن البوة	معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان	
٤	خرشنة		
٥	ربض القرن		
١	قونية	مروان بن محمد بن مروان بن الحكم	اعاد فتح هذه المدينة وله فتوح كثيرة في مناطق أخرى ۰
١	القسطنطينية	محمد الفاتح	

هرقـل

ملك الروم

٦١٠م — ٦٤١م

تولى هرقل الحكم بعد فوكاس ، فقد بعث هرقل حاكم افريقيـة للروم ابنه هرقل على رأس أسطول بيزنطي الى القسطنطينية ، فتوقفت السفن أثناء سيرها ببعض الجزر والموانىء البيزنطية ، ولقي هرقل الترحيب من جميع الناس • وفي ٣ تشرين الاول (أكتوبر) ٦١٠م ظهر أسطوله أمام أسوار القسطنطينية ، فتعالى الهتاف له ، على أنه مخلص البلاد ومنقذها • فعمل هرقل على التعجيل بانهاء حكم فوكاس • وفي ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ٦١٠م ، تلقى هرقل التاج من يد البطريرك ، ثم أمر باعدام فوكاس وتحطيم تمثالـه المقام في ميـدان السباق •

وألف هرقل ومن جاء بعده مباشرة من الأباطرة أسرة حاكمة ترجع ترجيحاً الى أصل أرمني ، وحكم هرقل من سنة ٦١٠م حتى سنة ٦٤١م •

ويعتبر هرقل من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي ، فهو على حد قول أحد المؤرخين ، الذي أنشأ بيزنطة العصور الوسطى ، والذي اتخذ رومة مثالا له في الحكم ، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية ، واتخذ المسيحية ديناً ومذهبا ، وأجرى في داخل الامبراطورية حركة تجديدية ناشطة ، وكانت بيزنطة قـد ادخرت في ذاتها من المواهب والموارد ما أسهمت بها في خلق نهضة اجتماعية سياسية ثقافية عسكرية •

وكان الصقالبة قد استولوا على معظم ممتلكات الامبراطورية ، وأصبح الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، لاسيما داخلها ، اقليماً صقلبياً •

أما الفرس ، فأخذوا يتوغلون في الشـرق الأدنى منذ سـنة ٦١١م ،

فاستولوا على أنطاكية التي تعتبر من أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للدولــة البيزنطية ، ولم يلبثوا أن استولوا على دمشق ، وشقوا طريقهم شمالا فاستولوا على حصن طرسوس وطردوا البيزنطيين من ارمينية • وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت معنوياتهم حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار اســتمر ثلاثة أسابيع ، فجعلوا المدينة نهباً للحريق والمذابح ثلاثة أيام ، ودمر الحريق كنيــة القيامة التي شيدها قسطنطين الكبير ، وكان لهذا العمل رد فعل خطير في بيزنطة ، لاسيما أن الصليب المقدس (صليب الصلبوت) الــذي يعتبره المسيحيون أثمن المقدسات الدينية ، استولى عليه الفرس ونقلوه الى عاصمتهم المدائن •

ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين ، بل امتدت سنة ٦١٢م الى آسيا الصغرى حتى بلغت مضيق البسفور ، وعسكر الفرس تجاه القسطنطينية، وبذلك تعرضت العاصمة لزحف العدو من جهتين : اذ زحف عليها من الشمال الصقالبة والآفار •

وشرع الفرس بغزو مصر ، فسقطت في أيديهم الأسكندرية سنة ٦١٩م ، ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت بأيدي الفرس •

وبدأ هرقل باجراء اصلاحات عسكرية وادارية شاملة ، وكان من نتائج هذه الاصلاحات تغلب الصفة العسكرية على ادارة الامبراطورية ، واعــادة تنظيم القوات المسلحة ، وكانت نتائج هذه الاصلاحات واضــحة ملموسة ، فنهضت الامبراطورية من جديد ، وهُزم الفرس هزيمة ساحقة منكرة بفضل جهود هرقل التنظيمية وقيادته المتميزة •

كما أن الكنيــة البيزنطية أسهمت بقدر كبير فيما أحرزته الامبراطورية من الفوز والنجاح ، اذ جعلت كل ما لديها من ثروة تحت تصرف الحكومة ، وما كان في كنائس العاصــة والأقاليم من التحف المصنوعة من الذهب والفضة

جرى صهرها وسكها نقودا •

وقرر هرقل أن يقود بنفسه الحرب على الفرس ، وطغى على الحرب في مستهلها جو من الحماسة الدينية التي لم تكن معروفة في العصور الماضية ، فكانت حربا صليبية سابقة على الحروب الصليبية المعروفة •

وفي يوم الاثنين ٣ نيسان (ابريل) سنة ٦٢٢م ، غادر هرقل القائد العام للجيش البيزنطي العاصمة بعد أن أدى القداس ، وعبر البسفور الى آسيا الصغرى حيث لجأ الى جهات الثغور البيزنطية ، فاجتمع له عدد كبير من الجند• وأمضى شهور الصيف في تدريب الجند ، وعكف على دراسة الخطط العسكرية ، فابتكر أساليب جديدة منها ، فازدادت أهمية استخدام الفرسان في القتال ، وأبدى هرقل اهتماما كبيرا بالرماة من الفرسان •

وبدأ هرقل في الخريف حملته ، فشق طريقه الى ارمينية ، وتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرضهما ، فانتصر الروم على الفرس هناك انتصارا حاسما ، وبذلك تحقق أول هدف من أهداف هرقل ، وهو تخليص آسيا الصغرى من العدو •

وفي سنة ٦٢٣م سار هرقل الى ارمينية ، فأحرز انتصارات على الفرس هناك ، ثم توجه نحو الجنوب ، فزحف على (جانزاك Ganzak) التي كانت عاصمة لأردشير ـ أول ملوك الساسانيين ـ وتعتبر من المراكز الدينية الرئيسة في فارس ، فلاذ كسرى بالفرار من المدينة التي لم تلبث أن سقطت بيد الروم ، فأشعلوا الحرائق في معبد زرادشت انتقاما لما أنزله الفرس من قبل ببيت المقدس من نهب وتخريب ، ووقع بيد هرقل عدد لاحصر له من الأسرى •

ودارت خلال سنتى ٦٢٤م و ٦٢٥م معارك طاحنة في ارمينية بين الروم والفرس ، كانت الكفة راجحة فيها للروم على الفرس •

وفي سنة ٦٢٦م تعرضت القسطنطينية لهجوم مزدوج من الفرس والآفار، ولكن لم ينجح الهجوم وانتصر الروم في نهاية المعارك •

وفي سنة ٦٢٧م ، شرع هرقل بزحفه الكبير نحو الجنوب متجها الى قلب بلاد الفرس ، وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) من هذه السنة أحرز انتصارا حاسما على الفرس في معركة نينوى الحاسمة التي قررت مصير النزاع بين الفرس والروم نهائيا في مصلحة الروم ، اذ أحرز البيزنطيون انتصارا باهرا على الفرس • وحلت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة وخسائر فادحة •

وواصل هرقل زحفه المظفر ، وفي أول سنة ٦٢٨م استولى على داستاجرد مقر ملك فارس ، فأسرع الملك بالخروج منها ، مما أدى الى عزل كسرى وقتله، فتولى الحكم بعده ابنه ، وعقد الصلح مع هرقل •

وبمقتضى هذا الصلح ، استرد هرقل كل ما كان لبيزنطة من ممتلكات في الجزيرة وارمينية وسورية وفلسطين ومصر ، وأعلن كسرى (شيرويه) أثناء مرضه الذي مات فيه ، بأن يكون هرقل وصيا على ابنه ، وكان سلفه كسرى الثاني قد أعلن أن الامبراطور البيزنطي ليس الا عبدا له ؛ فتغير الزمن وانعكس الوضع ، فأعلن شيرويه أن ابنه ووريثه في الحكم عبد للامبراطور البيزنطي هرقل ، وهكذا غير هرقل موازين القوى من حال الى حال ، فأصبح المغلوب غالبا ، والعبد سيدا •

وعاد هرقل الى عاصمته ، بعد أن غاب عنها ست سنوات ، فاستقبله ابنه على شواطىء آسيا الصغرى ، واستقبله البطريرك سرجيوس ورجال الدين وأعضاء مجلس الشيوخ وجموع الشعب ، يحملون أغصان الزيتون والشموع الموقدة ، يرتلون المزامير ، ويهتفون باسمه فرحا وسرورا •

ولما تحررت الاقاليم البيزنطية من الفرس، ارتحل هرقل وبصحبته زوجته، سنة ٦٣٠م ، قاصدا بيت المقدس ، حيث أعاد في ٢١ آذار (مارس) سنة ٦٣٠م ،

وفي وسط مظاهر الفرح الغامر ، اقامة الصليب الذي كان قد غنمه الفرس في موضعه ، كما أعاد الى مواضعها كل ما جرى سلبه من الكنيسة ، واعتبر المؤرخون أن هذه الحرب أول حرب مقدسة شنها العالم المسيحي ضد غيرهم من غير المسيحيين .

وتعتبر الحرب الفارسية البيزنطية مرحلة مهمة من مراحل التاريخ البيزنطي والفارسي أيضا ، اذ أن معركة نينوى حطمت قوة الفرس ، ولم يعد لفارس ماكان لها من الأهمية . إما الآثار ، فان كبرياءهم هوت الى الحضيض بفضل ما أحرزه عليهم البيزنطيون من انتصارات في معركة القسطنطينية . وبلغت بيزنطة بما أحرزته من النصر ، ذروة القوة والمجد وذاع اسمها فيما وراء الحدود ، فأرسل ملك الهند الى هرقل يهنئه بالنصر ، وبعث له بهدية حافلة من الأحجار الكريمة ، وأنفذ دابوجرت ملك الفرنجة السفراء لعقد صلح دائم مع الامبراطورية البيزنطية ، وأرسلت بوران ملكة فارس مبعوثا خاصا الى هرقل ليبرم معاهدة الصلح .

ويعتبر عهد هرقل نقطة تحول في تاريخ الدولة البيزنطية من النواحي الحضارية والسياسية والعسكرية ، اذ انتهت المرحلة الرومانية من التاريخ ، وبدأ ما يصح اعتباره التاريخ البيزنطي ، وقد اتحد ظهور العنصر اليوناني وقوة المؤثر الكنسي ، فوهبا الامبراطورية مظهرا جديدا .

وحين بدأ الصراع بن العرب المسلمين من جهة والروم من جهة ، كان الروم أقوى دولة في العالم دون منازع ، يقودهم هرقل أعظم أباطرة الروم وقادتهم ، وكانت معنويات الروم قادة وجنودا عالية جدا بعد انتصارهم على الفرس والآثار ، وكانوا أكثر حضارة من العرب المسلمين القادمين من الصحراء وأعرف بأساليب القتال وأعظم تجربة عملية في الحرب ، وأكثر عددا وأغنى مددا ولكنهم اندحروا أمام العرب المسلمين بالرغم من قوة في جيوشهم وقيادتهم لا من ضعف بهما كما يزعم قسم من المستشرقين وقسم من المستغربين .

وقد حاولت أن أسجل سيرة حياة هرقل الذي أرسل اليه النبي صلى الله عليه وسلم رسولا يدعوه وقومه الى الاسلام . لكي أظهر تهافت ادعاء أولئك المستشرقين والمستغربين الذي يزعم أن انتصـار العرب المسلمين كان لضعف الروم قيادة وجيشا ، ولم اعتمد على المصادر العربية والاسلامية في تسجيل هذه السيرة ، بل اعتمدت المصادر والمراجـع الأجنبيـة ، حتى أبطـل مزاعم المستشرقين والمستغربين ، وأبطل مايمكن أن يزعمه المقلدون لهم من انحيـاز المصادر العربية والاسلامية للعرب المسلمين على الروم وتحيزهم لبني جلدتهم وعقيدتهم على الروم ، وعلى كل فالحق ظاهر ولايمكن كتمانه ولو بعد حين .

وفي ١١ شباط (فبراير) ٦٤١م ، مات هرقـل ، فارتجت القسـطنطينية لموته ، وارتجت الامبراطورية البيزنطية خاصة والعالم المسيحي عامة لرحيله ، اذ فقدت المسيحية بموته بطلا من أبطالها المعدودين : منقذ القدس من الفرس .

المراجع

التي ورد ذكرها ـ باختصار ، أو باسهاب ـ

في :

كتب ، معجمات : بلغات اجنبية ، ومترجمة الى العربية

المقالات

ربيع الابرار ونصوص الاخبار :

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب :

(*) ما كتب باللغات الأجنبية ، شيء كثير جداً ، مبني على الدراسة والمشاهدة للاثار المنسوجة . والمختصون بشؤون المنسوجات قد ونوا هذا الموضوع في كتبهم ومجلاتهم المختصة .

صور من حضارة العراق في العصور السالفة : صناعة الحياكة والنسج :

الكوفية والعقال :

ملابس العراقيين وازياؤهم في العصور السالفة :

1. Baynes, N. H : The Byzantine Empire. London 1926.
2. Ostrogorowski, G : History of the Byzantine. Trans. Joan Hussey, Oxford 1956.
3. Vasiliev, A : The Byzantine Empire. Madison 1952.